

أرض أز

في ساعة مبكرة من الصباح التالي، وكنت قد رجعت لفراشي بعد أداء صلاة الفجر، استيقظت من نوم خفيف إثر صوت إطلاق نار مصدره الأحياء المجاورة. وكان ذلك مدعاة للدهشة والانزعاج. وكنت على وشك شتم أولئك الذين تسببوا في مصدر هذا الإزعاج عندما علمت على التو أن ذلك الصوت لخمس بنادق أطلقت عدة أعيرة بغرض التحية على شرف مقامي. وكان بيني وبين مكان إطلاق النار جمل صغير (حاشي) ملقى على الأرض ويتدفق منه الدم حيث تم نحره احتفاءً بي.

وعند وصولي مساء الليلة البارحة لاحظت بمزيد من الحزن والانزعاج أن صالح ابن حزيق لم يكن ضمن المجموعة التي تجمعت للترحيب بي مرة أخرى. وتوقعت أن يكون قد ذهب إلى المزارع. ولكن في المساء وصلتني رسالة منه مفادها أنه سيتصل بي في الصباح. ويعزو عدم حضوره مبكراً للترحيب بي إلى وجود ضيوف معه ليلة وصولي. وقد راودني إحساس بأنه كان يقصد به التجاهل ولكن تيقنت الآن أن ذلك لم يكن صحيحاً البتة. وربما كان قد عرف أن مراسيم الترحيب بي لم تكتمل؛ لذا فقد اختار صاح أول فرصة في صبيحة اليوم التالي ليزجي لي تحية خاصة وذلك بذبح عجل سمين على أنغام عزف موسيقى. ولكنني كنت مرهقاً للغاية بسبب سفري طوال الليل وأخلدت إلى الراحة. ولم أتمكن -لسوء الحظ- من مشاهدة المراسيم التي أقيمت للترحيب بي.

وعندما صحوت وجدت صالح بن حزيق بجاني. وهو رجل ضخم الجثة، تبدى عليه أمارات الأبهة والاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث للآخرين. وكان يجلس بجنبه رجل صغير السن يرتدي ملابس غريبة وسرعان ما حيّاني الرجلان، ونهضت من فراشي لتحية الرجلين. وقدم لي صالح المدعو حمد بن ناصر القردعي. وهو أي حمد، من الهاريين من العدالة وكان يرتدي معطفاً قصيراً وسترة أهل اليمن. ويبدو

من نوعية ومستوى حياة ملابسه أنه من عليّة القوم. وكان الأخير وأخوه المدعو عيّا حكماً على كل من إقليميّ الجوبة وحريب اليمن. وقبل ثلاث سنوات خلت غضب عليهم الإمام (حاكم اليمن) بسبب تمردهم على سلطته. وقام السيد عبدالله بن الزبير بإخماد تمردهم. وربما يُعرف عبدالله بن الوزير أكثر بأنه كان مندوب اليمن في المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية الطائف عام ١٩٣٤م. واعتقل علي وتمّ سجنه لكنه هرب لاحقاً، أما حمد فقد هرب فور إخماد التمرد. وأعلنت السلطات اليمنية أن كليهما هارب من العدالة وأنه يجب القبض عليهما أو قتلها عند رؤيتهما. وكان حمد يعيش في سلام وهدوء مع مجموعة من القبائل انبذوية في وادي مرخة عتمة علم بوصولي إلى شبوة؛ لذا فقد كان يريد مقابلي للتوسط لمنحه الحماية من ابن سعود. فكل ما أستطيع عمله وقتئذٍ هو إعطاؤه الحماية والأمان إلى نجران ومن هناك أخبر الملك عبر جهاز لاسلكي بموضوعه للبت فيه. ورفض الملك إعطاءه الحماية تنفيذاً لبنود اتفاقية الطائف التي تحظر إعطاء حق اللجوء للمهاجرين من وجه العدالة.

ورجوعاً إلى مناسبة لقائنا الأول، فقد ذهبت مع صالح وحمد إلى التل المناشة بعض الموضوعات الخاصة بخططنا المستقبلية. وخلال اللقاء -وبينما نحن نتشاور في بعض الأمور الهامة- كنت أسترق النظر إلى معبد عشتارت لإمتاع ناظري بمختلف زواياه. وتقول الروايات الشفهية: إن تدمير شبوة يعزى إلى عقوبة إلهية لقتل النبي صالح الذي دفن في وادي سر، بواسطة سكانه. وثمة إشارة هنا وهي أنه يوجد نيز يحملان هذا الاسم «صالح» في الجزيرة العربية قديماً^(١). والأكثر أهمية هو صالح ابن عبيد الذي أدى اغتياله إلى تدمير مدينة النبطيين (ثمود) في مدائن صالح في الشمال. ويعزى سبب سقوط شبوة إلى صالح بن حيسة حمير.

(١) مما هو معروف لدى المسلمين أنه ليس هناك نبيان يحملان اسماً واحداً، وإنما المعروف أن هناك نبياً، أحداً اسمه صالح -عليه السلام-، وليس إلى ما ذهب إليه المؤلف من وجه. (المراجعون).

والروايات العربية بحقل آب الابن وليس حفيد أرفحشد^(١). وهذا الدليل في حد ذاته ليس كافياً لترجيح الاحتمال بأن صالحاً هو جد هود كذلك من المستبعد أن يكون بنو هود في أسبانيا تربطهم صلة قرابية مع الأخير. ولكن إذا كان صالح قد تسبب في تدمير شبوة، فيبدو لي استناداً على الأدلة الظاهرة لأطلال شبوة أن الله القادر قد سخر زلزالاً أو حملة حربية لتدمير ذلك المكان انتقاماً لرسوله، ويمكن الاستنتاج من المعلومات التي يضمها أحد النقوش التي جمعتها من موقع القلعة والذي يشير إلى إصلاحات كثيرة لسقف معبد شبوة بعد انهياره نتيجة لزلزال. وفي كل الأحوال فقد هُجرت المنطقة وعمّ الخراب بسبب السيول لاسيما بعد أن أهملت وسائل الري.

وبينما كنا جلوساً نستمتع بمنظر المدينة تجاذبنا أطراف الحديث في المواضيع أعلاه فضلاً عن أمور أخرى عديدة. وكان حمد القردي في بيحان عندما زارها الرحالة ماكسويل دارلنج. وفي طريقه إلى وادي مرخة انضم إليه عبدالله بن صالح من عشيرة همام أحد فروع قبيلة العوالق الذي أحضر معه رسائل من قبيلته ومن عشيرة النسبين تدعوني لزيارتهم حيث إن كليهما كانا مندهشين بتفاصيل مغامرات ماكسويل دارلنج، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع التيقن من مصداقية تفاصيل قصة هذه المغامرات، إلا أنني سأوردها هنا كما سمعتها من السنة هؤلاء الرجال. ويزعم هؤلاء أن سلطات عدن كانت لديها أسبابها في إظهار غضبها تجاه الشيوخ في إقليم أحور في سلطنة العوالق السفلى؛ ولهذا فقد توقفت عن تقديم المساعدات والإعانات المالية التي كانت تقدم لهم باعتبارهم تحت حماية الحكومة البريطانية. وفي فترة لاحقة (في نهاية يونيو ١٩٣٦م) وصل ماكسويل دارلنج بحراً إلى ساحل أحور بغية القيام برحلة إلى بيحان في

(١) سنا عاد المؤلف مرة أخرى إلى الخوض في تاريخ الأنبياء اعتماداً على مصادر ضعيفة مثل الروايات الشفهية أو لإسرائيليات وغيرها والتي لا يخفى على القارئ التحريف والخلط الظاهر فيها. وفي مصادرنا الأصلية القرآن الكريم والسنة النبوية ما يغني عن هذه الأقاويل التي لا تستند إلى أساس. (المراجعون).

منطقة العوالتق. ويقول ماكسويل استناداً إلى خطاب وصلني منه: «كانت الرحلة تتعبه خاصة وأن أهالي العوالتق كانت لديهم أفكار مسبقة عن المال... وعليه كانوا يتوقعون نفيهم إتاوات للسماح لي بالمرور عبر أرضهم، فضلاً عن السيارة (ما يدفع ظير خدمات الأدلاء). ولم أكن مستعداً لتلبية هذا الطلب مما سبب لي بعض الإزعاج».

وأظهر شيوخ أحور استياءهم من تصرف الحكومة البريطانية بإيقافها للإعتقات التي كانت تقدمها لهم حين قاموا باعتقال الرحالة ماكسويل دارلنج وحراسه في وادي المنقعة حيث كان لهم فيه قريتان فضلاً عن بعض الأراضي الزراعية. وقد طلبوا مال ورفض طلبهم. وصلت الأخبار إلى يشبم، حيث طُلب من السلطان أن يرسل غرقة قوامها ٤٠٠ جندي قامت بفك ماكسويل وأدلائه من الأسر مما مكّنه من الوصول إلى بيحان في سلام.

وأرسلت حكومة عدن طائرات عندما سمعت بأخبار هذه الأحداث من يشبم وبيحان، وذلك لضرب قرى أحور. ولكن حدث أن أخطأت الطائرات الهدف وأصابت قذائفها الجربة (مناطق زراعية) وهي تابعة لأقوام لا علاقة لهم البتة بأحداث الأهوار ونجم عن ذلك تدمير الحبوب الزراعية ومقتل امرأتين. ونتيجة لذلك الحوادث استشاط أهالي القتلى غضباً واحتجوا لسلطات عدن عن هذا العمل الاستفزازي. وفي نهاية الأمر اعترفت الحكومة بالخطأ واعتذرت للأهالي كما دفعت لهم تعويضات سخية. ويواصل صالح بن حزيق تفاصيل هذه القصة زاعماً أن الطائرات عادت الهجوم مرة أخرى ودمرت القريتين بالقنابل، لكن لم يصب أحد من الأهالي بسوء؛ لأن القرى كانت قد أخليت قبل وقوع هذا الحادث. يدعي الحزيق -دون إشارة إلى مرجعية لمصدره- أن الطائرات الحكومية قد أمطرت المنقعة بلدة قبيلة أحور بالغاز السامة والتي لم تدمر المحاصيل الزراعية فحسب، بل جعلت هذا المكان غير صالح للزراعة لما يربو عن ثماني سنوات، ولا أجد نفسي مصدقاً لموضوع استخدام الغاز السام لتخريب منطقة قبيلة أحور بيد أن القصة -في تقديري- حقيقية في جوهرها.

وهي تعليق نبيه على رسائل بريطانيا في (الحماية) التي يطلب منا جدياً تصديقها. جاء في تقرير لمحاضرة القيت مؤخراً في القاعدة الجوية لمحمية عدن، إنه بعد شهرين من الإرهاب الجوي المستمر في منطقة أحور، أظهرت قبيلة صعبة المراس في هذه المنطقة رغبة في التخلي عن معاداتها للفاتحين. وفي تقديري إنه لا يمكن تصديق مثل هذه المقولة فضلاً عن قناعتني بأن هذه القبيلة نفسها لا تريد أن تعامل بهذا النهج. ولا يوجد إنجليزي واحد يشعر بالبهجة والسرور وهو يرى نوعية المعاملة التي عامل بها الطليان الأثيوبيين. وثمة إشارة هنا، وهي أن مقالاً افتتاحياً لجريدة التايمز (١٥ مارس ١٩٣٨م) أعلن «إن استمرار وسائل العنف تحت أي ظرف من الظروف لأجل المحافظة على الأمن ولو كان عملاً مشروعاً فإنه يدعو الأهالي إلى الاستياء وإدانة الحكومة البريطانية». فهل هذا هو الحال؟ وماذا عن فلسطين وحضرموت؟

وفيما يخص قصة الغاز السام، وكما ذكرت آنفاً، لا أصدق هذا الموضوع، لكن ماذا يتوقع المرء عندما تكون الحكومة البريطانية غبية ليس فقط في استخدامها للغاز السام المسيل للدموع ضد العرب في فلسطين لكن في إذاعتها ذلك الخبر للملأ ومن خلال أجهزة الراديو؟! ولا يستطيع المرء أن يتصور الفارق بين السم والغاز المسيل للدموع فكليهما يبدو عملاً مفزعا.

ورجع ماكسويل بغتة من بيحان إلى عدن بالطائرة. وفي فترة لاحقة، وبينما حمت كان لا يزال موجوداً في بيحان وقبل أسبوعين من مقابلي له وصلت طائرة بتعليمات من الأمير للبحث عن نورمان بيرن، الذي يتوقع وصوله إلى هنا في أية لحظة. وتبعاً للمعلومات التي أفادني بها حمد، فإن أخبار تجوالي قد وصلت بيحان من مصادر عربية في نجران وشبوة. ومن الواضح أن الكابتن هاملتون البوليس السياسي المسؤول عن تلك الأصقاع قد أحاطهم -كما رأينا سابقاً- بتحذير سلطات عدن لي بمغادرة المنطقة. ولكن هذا لا يمنعني من تلبية دعوة كريمة لزيارة بيحان

أرسلت إليّ بواسطة عبدالله بن صالح الهمامي من حاكم بيحان وتوابعها القاضي أحمد بن عتيق البكري الأنصاري. والرسالة الخاصة بهذه الدعوة كتبت وأرسلت إليّ من وادي مرخة كما تذكر الرسالة نفسها، حيث ينتظرنني حاكم بيحان هناك برفقة مجموعة من قومه. ولسوء الحظ لم أتمكن من الوصول إلى وادي مرخة إلا بعد أسبوعين من تاريخ الرسالة بسبب تأخير طويل في حضرموت.

وكانت الرسالة مكتوبة بهذه العبارات: «أمير الأمراء وعظيم العظماء الميجل الحاج عبدالله فيلبي . . . إنخ. أود أن أحيط مقامكم الكريم عندما أعلمنا الضبط السياسي بمقدمك ومعيتك من مرافقين إلى محميتنا الشرقية، فقد ابتهجنا بذلك متمنين من الله أن يجعل مقدمك فأن خير وسلام لهذه المنطقة التي فقدت العدالة والطهارة. وقد قمت بالتحدث إلى أهالي هذه المنطقة وأسديت لهم النصح في شؤونهم النبوية والروحية ونبهتهم بضرورة الطاعة والولاء لسيدنا وملكننا إمام العصر وخليفة لثمان وخادم كلمة الله. فالإله يقدر العدل والرحمة، عبدالعزیز آل سعود، فليهبه اله النصر لأجل حقوق أهل المحمية التابعة لصاحب الجلالة ملك الحكومة البريطانية الرحيم المهيب والحامي لبلدنا من اعتداءات الأعداء، وخادمكم -يعني نفسه أي نائب الرسالة- في شوق لمقدمك أنت وأتباعك في "أسفل مرخة" بكل الحب والتقدير، وأستميحك بالتعجل في القدوم لأن إبلنا في حالة يرثى لها ولا تجد علفاً تقتات به . . . لذلك فنحن في انتظارك . . . وهذه الرسالة كتبت على عجل، وآمل أن تقبل ذلك، وقد أصدرت تعليماتي إلى شيخين هما مبخت بن سالم بن شمالان الهمامي وأحمد (عبدالله) بن صالح الهمامي لمرافقتك إلى أن تصل مرخة، لاسيما أن قبيلة همام لديها حق الحراسة وذات نفوذ فاعل . . .».

هذه هي الرسالة التي وصلتني من حاكم بيحان. وذهب مبخت ليعلن للملاّئني لم أصل بعد أما عبدالله فقد بقي لمرافقتي إلى مرخة. وأخطرت سلطات الحكومة في

عدن بالاستناد إلى سلوكيات السلطات معي، بأني لا أنوي السفر إلى بيحان أو أرض سلطان العوالق. وعرفت من تحريات مع عبدالله أن عشائر همام والنسبين لا تعترف بحماية حكم سلطان العوالق أو السلطات البريطانية في عدن. وأكد ذلك لي لاحقاً كل من صالح الحزيق وحمد القردعي. ورغم قبولي الدعوة إلا أنني قررت ألا أدخل أي منطقتي تحت نفوذ حكومة عدن أو سلطان العوالق المحمي من السلطات البريطانية. واستفسرت من صالح عن صحة المعلومة التي وصلتني تلغرافياً من السلطات البريطانية في عدن ومفادها أن شبوة والكرب يقعان تحت نفوذ سلطان العوالق. وكان رده باخرف: «هراء!»^(١) كذآبون، هذه هي بلادنا ولا يوجد حاكم لها سوانا». ومن جهة أخرى، فإن سلطان شبام كان على رأي مؤداه أن شبوة تقع ضمن مناطق نفوذه وليس تحت حكمه مباشرة. ولذا لم يجرؤ أي من السلطانين على زيارتها دون إذن من أهلها.

ولم تكن دعوة مرخة هي الأولى التي تلقيتها. وفي صبيحة يوم مغادرتنا شبوة في الطريق إلى حضرموت، جاءني صالح وبرفقتة رجل غريب المظهر، وعلى بدنه سترة من جلد الأسد ويتمنطق حزام حفظ الرصاص. وكان حديثه غريباً مع حركات تبدد كأنها نتاج إعاقه طبيعية. وكان هذا الشخص هو حمد بن عبد الله زعيم أهل الضباب من عشيرة وادي جردان وكان في طريقه لزيارة زوجته، من الفقراء، وأولاده الذين كانوا يقطنون في منزلهم بقريه حجر. وكان الرجل يتحدث بحماس عن الأطلال الكافرية التي تقع في منطقتة، وادي البنا في أعلى عياذ بالقرب من النقطة التي ينتهي فيها وادي جردان ويتحول إلى سهل فسيح. وقدم حمد بمودة شديدة - دعوتة لزيارة قبيلته-. ووعدني كحافز لذلك إهدائي علبة صفيح مملوءة بعسل جردان الشعير والغالي الثمن. ورغم أنني لم أكن قد عزم رأبي بعد فيما يخص تحركاتي في المنطقة، إلا أنني أعطيته موافقتي المبدئية على هذه الرسالة ووعده بأن أرسل له

(١) يخسون - كذابة. (المؤلف).

صالحاً - إذا سمحت الظروف بالزيارة - لتحديد ميعاد الحضور إلى ديار عشيرته . وفي فترة لاحقة اتفقت مع صالح بأن أزور مخيم حمد في وادي أنصاب والذي سيمكث فيه بعض الوقت قبل أن يعود أدراجه إلى بلدته . وأرسلت إليه خطاباً بهذا المعنى لمقابلتنا في المستقبل المنظور بمعية أعيان عشيرته .

وفي غيابنا جاء وفد من قرى وادي عرما الواقع أعلى وادي شبوة والكثيف السكان، مقدماً لنا دعوة لزيارة تلك المنطقة . وبالإضافة إلى طريق عقبيات الذي عبره جواً هلفريتز قادماً من شبوة، فإن هناك طريقين آخرين للقوافل من حضرموت إلى مستوطنات عرما . فالطريق الأول يتفرع من طريق شبوة عند بئر مجموعة ماراً بولدي دهر حيث يتناثر العديد من القرى الصغيرة . ويواصل الطريق مسيرته إلى وادي عرما . أما الطريق الثاني فيبدأ من وادي المطر من نقطة بئر عساكر ويدخل وادي عرما من أسفله . ومن المحتمل أن هلفريتز رجع عن طريق هذا الوادي بعد أن مكث قليلاً في قرية الضلع ولكن من الملاحظ أنه لم يعط تفاصيل لرحلته سوى ذكره لأسماء سبع قرى - إحداها لا أستطيع تحديدها في قائمة القرى التي أعطيت لي بواسطة عدة رواة من شبوة - . لكن المدهش أنه ذكر في كتابه المعنون «أرض بلا ظل» أنه لمح قرية عرما ولم يزرها . ولكن من المؤكد أن القرية التي يقصدها هي عياد وليس عرما . وفضلاً عن ذلك فإن زعمه بأن عرما كانت منطقة غير مأهولة بالسكان لا أساس له البتة . ومما يؤكد ذلك ما ذكره الملازم طيار أ . ر . م . ريكاردز عام ١٩٣٣م الذي زار منطقة وادي دهر ووادي عرما وقام بمشاهدة وتسجيل أعداد كبيرة من القرى على امتداد هذه المنطقة . ويبدو أنه لم يحاول زيارة شبوة .

لم أكن أعرف شيئاً عن رحلة ريكاردز في ذلك الوقت، ولم أكن متحمساً لأحدد أسفاري في ذلك الاتجاه . أدى التأخير الطويل في حضرموت إلى تعديل في برنامجي لأنه إذا أزمعت زيارة كل من جردان ومرخة فلن أجد متسعاً من الوقت لزيارة عرما؛ لذا فقد أقنعت نفسي بأن أجمع أكبر معلومات ممكنة عن تلك القرى .

وجدير بالملاحظة أن الجرف الذي يقع موازياً لوادي شبوة يشكل الحدود الشرقية لقبيلة الكرب والتي تتبع لنفس مجموعة قبائل عرما. وأسفل وادي عرما تقطن عشائر المشايعة التي توجد قراها في الحمة والجيف والسمحاء ومسلب. وأكثر أهمية من هذه العنيرة هي مجموعة «آل عمرو»، التي تقطن وادي عرما وتتجمع قراها في العقبيات وهي حبيظ، وحصن سنديان، والكويرة ومستوطنة كربية منعزلة وتسمى المافود. أما الوادي الذي يقع أمام هذه المنطقة فتسكنه عشيرة «آل بادخن»، التي تتوزع في قرى الحشم وباكيلة والحرة والأكواخ الصغيرة المتناثرة في وادي الحنكة وهو أحد ثلاثة أودية يكون التقاؤها في وادي عرما والاثنتان الآخران هما ينجل وهو خال من السكان وسعرة والذي تقطنه عشيرة عبد الصمد من مجموعة الفقراء. ويفترض أن القنوات الثلاث المذكورة تنحدر من منطقة تقسيم المياه.

إضافة إلى المستوطنات التي ذكرت أعلاه، فإن منطقة الفقراء (المشايع) تتناثر فيها العديد من القرى هي: الجيزة، والخليف، والضلع العليا والسفلى، والصفاء، والحصا، والكورة، والمنقلة، والحرة ومعلا، ويجدر التنويه إلى أن أكبر قريرتين وأهمهما في المنطقة هما المافود والضلع اللتان زارهما وصورهما الرحالة هلفريتز. وأم تحالف قبائل بلعبيد فهو ينحصر باستثناء قبيلة الكرب التي تحتل منطقة السهل في الأودية داخل هضبة حوق وتمتد مناطق هذا التحالف من أراضي جردان إلى أعلى وادي رحية.

وبعد الظهر ذهبت ومعني صالح وابنه الصغير حمد الذي أعطيته حلوى كنت قد أحضرتها من حضرموت. أخذت السيارة في زيارة تفقدية للأطلال التي أسماها صالح بئر حمد بن قطيان. سميت باسم الأخير لأنه قام بمحاولتين لحفر بئر قديمة في هذا المكان على مسافة ميلين أسفل قناة معشار الذي يصبح في هذه المكان وادياً رملياً واسعاً محاطاً بغطاء نباتي والعديد من أشجار العلب الخضراء. وفي الجانب الأيسر من خضفة الوادي يوجد جرف تعلوه الأطلال التي نود زيارتها. ويبدو أن هذه الأطلال

عبارة عن حصن يشغل مساحة تتراوح بين ١٧-١٨ قدماً وتتناثر حولها أكوام حجرية توحى بوجود كوخ صغير أو مجموعة من الأبنية الخارجية ذات العلاقة بالحصن. وهناك سبعة مداмик لا تزال شاخصة للعيان تشير إلى أن الحصن من الصراز السيكلويين ويشبه ما يناظره في روابي كمشة ومدعر، ويبدو أن هناك رابية صغيرة تم الحفر فيها إلى مستوى الصخر البكر لوضع الأساس الحجري للبناء الذي يبدو في مظهره في غاية الجمال مقارنة بما يحيط به من مناظر، ويلاحظ أيضاً أن أرضية الحصن تتناثر حولها كسر الفخار الأحمر في حين تقع البثر بين الجرف الصخري والحصن وهي مربعة الفوهة بقطر يصل إلى خمسة أقدام وذات قسبة مصفورة بكتل الأحجار الصغيرة كما توجد آثار لقناة ماء قديمة.

وغربت الشمس قبل رجوعنا للمعسكر. ولاحظت أن الجو هنا أكثر برودة مقارنة بحضرموت. وعند العشاء وصلت مجموعة الجمالين الذين رافقونا إلى شبة بقيادة جعلم الذي قال لي بالحرف: «التزمنا أن نأخذك من نجران إلى شبة وبالعكس، وإن جمالنا في حالة سيئة ومن الأفضل أن نرجع إلى نجران قبل أن تنفق. والآن تريدنا أن نذهب إلى مرخة وما شابهها. فلقد انتظرناك هنا لما يربو على شهر ونريد أن نرجع أدراجنا إلى عوائلنا، ولا نستطيع أن نصل إلى مرخة. وسوف نذهب معك».

وكان هذا التمرد بواسطة الأدلاء كريهاً وبغيضاً كما أنه غير متوقع. ويجدر التنويه إلى أن الجمال كانت ترعى وكانوا لمدة شهر يرفلون في حياة هائلة وكانت كل مصروفاتهم على حسابي الخاص. وفي ظل هذا الوضع دعوت إلى اجتماع عاجل ضم كلاً من سعد بن معيلم، وصالحاً وآخرين، وفيه واجهني صالح قائلاً: «أنت الذي أفسدت جعلم بمعاملة كشيخ وهو لا يعدو أن يكون مجرد جمال. وهو ليس أفضل من الآخرين». ولكن لم ينفرط عقد المودة تماماً بين النجديين وياهم وإن كانت الأخيرة كثيراً ما تتذمر من تعاملي الحذر والذي كنت أراعي فيه مشاعر البدو. إن

المشكلة تكمن دائماً في المحافظة على تماسك العناصر المختلفة في المجموعة. فسعد ومجموعته من النجديين يتحكمون في توزيع المؤن كالقهوة والشاي والسكر. وفي الوجبات فإننا نأكل مع بعضنا ولا سبيل للتفرقة بالرغم من أن سعداً وأصحابه كانوا يرتبون في طريقة أخرى. ومهما يكن من أمر فإن الذئب التي آويناها بعناية كانت مستعدة للانقضاء علينا.

وهذا التمرد يجب أن يخمد أو يخفف من غلوائه بأي ثمن. ولكن لن أتنازل بسية عن عزمي زيارة عياد ومرخة. وللوهلة الأولى كنت على رأي وهو أن أتجاهل المتمردين وأتركهم وشأنهم ليذهبوا إلى ديارهم كما أعلنوا ذلك. وإذا ما تم ذلك فلسوف يخسرون ما تبقى لهم من أجر. ولكن صالحاً أكد لي أننا لن نستطيع أن نجد جمالاً تأخذنا إلى نجران أو حتى إلى الآبار على مقربة منها في ذلك الموسم. وكان البديل المتاح لنا هو أن نترك معظم المجموعة في شبة أو يتحرك فوج صغير إلى مرخة بغية تجنب رحلة العودة. ولكن الأدلاء أكدوا لي عدم وجود طريق للعربات غربي طريق شبة - عارين للقوافل. ولهذا فقد قبلنا على مضض خيار الرجوع إلى شبة.

وسألت صالحاً عن الآبار في الجانب الآخر من الصحراء. وكان المتمردون من الأدلاء قد رغبوا في الرجوع عبر أقصر طريق، وهو الذي أتينا عبره، ولكنني رفضت هذه الفكرة. وقال لي صالح: «الطريق إلى بئر بوع مباشراً وهي تقع على مسافة قريبة للجنوب من الضيف». وسألت: «هل هناك أي بئر في هذه المنطقة يمكن أن نصلها جنوب بوع؟». فأجاب صالح: «فقط مأرب» وقلت له: «حسناً، لا أريد الذهاب إلى مأرب لأن الحكومة اليمنية لديها موظفوها هناك. ولكن مسعودة هي المكان الأمثل لنا. ومن هنا نستطيع أن نذهب إلى مرخة ونرجع إليها مرة أخرى ومن ثم نتوجه إلى مسعودة». لذلك فقد بدأنا نتفاوض مع المتمردين الذين أظهروا في البداية مشاكسة. وكانوا يودون الرجوع إلى الضيف، ولم يكونوا على دراية ببوع أو مسعودة.

واعتقدوا أننا سنستدرجهم إلى مسيرة طويلة. وتحدث كل من صالح وسعد وابن مدعار إلى المتمردين في الوقت الذي ذهبت فيه للاسترخاء مع توقعي بأن كل شيء سيسير على ما يرام. وسوف تنتظرنا مجموعة الجمالة في شبة ليأخذونا إلى مسعدة حيث توجد أنقاض أثرية كما يقول صالح.

قررت أن أترك كل مرافقي من النجديين خلفي وأنا في طريقي لزيارة منطقة قبيلة الكرب وذلك لعدة أسباب هي أولاً: أن جمالهم كانت تتبع لعشيرة يام المتمرة، وثانياً: لعدم حاجتي إليهم أثناء تجوالي في ديار الكرب وفي ضيافة كل من عشيرتي همام والنسيين. علاوة على ذلك وبالنظر إلى رفض السلطات في عدن مرافقة نجديين مسلحين معي، انتابني شعور بأن أبرهن لهم بأنني يمكن أن أسافر في محمية عدن بسلام بهم ومن دونهم في الوقت نفسه؛ ولذا احتفظت بأكثر هؤلاء المرافقين أهمية وهم سائق وميكانيكي السيارة وفراج القحطاني لصيد الطيور، وسعد ابن عثمان لسلخها ومحمد بن هزيل للطبخ وإعداد المائدة. أما بقية الفريق المرافق فقد كان من الأهالي المحليين وهم صالح بن حزيق، وعبدالله بن مدعار ومعيض وجميعهم من قبيلة الكرب، وهناك ناصر بن شماخ من عشيرة المرادعة (نهد)، وحمد القردي اليمني الهارب من وجه العدالة وعبدالله بن صالح الهمامي الذي وصل ضيوفه إلى مرخة. ويبلغ عدد المكورين حتى الآن اثني عشر فرداً ثمانية منهم يركبون في السيارتين والأربعة الآخرين على الجمال. وفي وادي أنصاب وعباد انضم إلينا حد أفراد قبيلة الكرب وآخر من عشيرة النسين كأدلاء للقافلة فأصبحت مجموعة اقوة أربعة عشر رجلاً يتم تقسيمهم إلى مجموعتين ثمانية وستة أثناء المسير على أن تتقيا فقط أثناء الليل في المعسكر. وفي رحلة العودة من وادي مرخة تستمر مجموعة الليل إلى معسكر صالح في أنصاب وتأخذ السيارتان طريقاً مستقلاً.

وصحوت في صبيحة اليوم التالي بشعور مفعم بالراحة بأن مشاكلنا قد انتهت. وكان قد بدا على زعماء التمرد بعض الحجل لكنني تجاهلتهم. ومنذ الفجر وحتى

التاسعة صباحاً كنت مشغولاً ببعض الأمور الثانوية. فقد جاء علي بن عفيشة وهو يعظن صداقته الدائمة لنا وبادلناه عبارات التحية والتقدير. وفي أثناء ذلك جاء بعض المتسولين من القرية وهم يتلهفون لمساعدة. وأخطرت سعد بن عثمان بأني لن أقفل راجعاً إلى شبوة وعندما وصله رسالة مني تفيد برجوعي إلى أنصاب فيجب أن يستعد لاستقبالنا في عارين وهي المرحلة الأولى في رحلتنا عبر الصحراء. جاء سعيد الذي كان مع ماشيته لوداعنا وبما أنني قد أعطيته بما فيه الكفاية من قبل فلا أظنه يتوقع هدية إضافية. وعلي بن عفيشة كان هو أيضاً سعيداً وراضياً. وقد كنت أنا كذلك. وعند الساعة التاسعة والنصف بدأنا رحلتنا.

وتنتهي "جزيرة" شبوة شمالاً على شكل شاطئ شبه دائري يبلغ ٣٠٠ ياردة تقبع خلفه قناة محباض التي تتصل بقناة معشار كما يلتقي الأحباب ليصبا معاً في رمل قوصة والنسر الشرقي. وعند عبورنا لقناة معشار مررنا بشاطئ تحيط به جروف رسوبية ويقع غربه سهل رملي مغطى جزئياً بالحصى يسمى أم حامد. والأدلة على الزراعة القديمة في هذه المنطقة كثيرة وكافية وهي تمثل ألواحاً حجرية لقنوات عتيقة. وخلف هذه المناظر يمكننا رؤية هضبة العرين التي تعد مقصدنا في الأيام التالية.

وكننا في روح معنوية عالية في مستهل يوم عطلة ملؤه النشاط. ومناظر الغزلان الثلاثة التي ترعى في المكان مغرية لا تقاوم. طاردنا الوعل (ذكر الغزلان) في اتجاه طرفي الرمال حتى دخلناها وبقينا بين الكثبان المتعارضة أو المنخفضات بينها. وأنقذ حياته وحل السيارة في نقطة ضعيفة من الرمال. وبعد جهد تمكنا من إخراج السيارة ورجعنا للسهل متجهين نحو عُقلة^(١). وتبدو كل هذه المنطقة الواسعة تحت الزراعة عندما كانت شبوة عامرة. وتحركنا إلى أعلى لصعود أحد الجبال حتى أتمكن من رؤية

(١) عُقلة: جبل بحضرموت بالقرب من شبوة، وهو غني بالنقوش الحميرية، كان يحتفل فيه الملوك الحميريون عند تويجهم وإعلانهم اللقب الذي يتلقون به بعد توليهم العرش. المحققي، معجم المدن والقبائل اليمنية، دار للكلمة، صنعاء، ط ١٩٨٥، ص ٢٩١. (المراجعون).

المنطقة. صاح صالح يناديني بأنه قد وجد كتابات في بعض الصخور التي يعلو قممها مبنى صغير. وفي أثناء ذلك كانت بقية المجموعة تبحث عن أماكن ظليلة بين الصخور لتجهيز بعض المرطبات أو للنوم.

ويبلغ ارتفاع قمة هضبة عقلة حوالي سبع مئة إلى ثمان مئة قدم فوق مستوى السهل. ولم أتجراً بتسلق قممها ولكنني التفت باتجاه الصخر لرؤية ما يحمله الخزق والذي كان يشير إليه بصورة متقطعة. وقد أجمت لساني الدهشة لما رأيت. فقد كان سطح الصخر الذي يواجهني مغطى بالنقوش. وعندما تفحصت النقوش ملياً تبين لي أن كل جوانب الصخر مزدانة بهذه الكتابات الصخرية. ويبدو أنها أهم المعثورات الكتابية في إقليم شبوة. وبدأنا نضحك بأصوات خافتة وساورنا شعور بأننا قد عثرنا على الكتابات التي رفض محمد أن يدلنا عليها. إلا إذا نفحته مبلغاً من المال وله ر محمداً بعد ذلك إلا بعد رجوعنا من وادي مرخة إلى مخيم صالح حيث علم ببلوغنا منطقة النقوش. ففي الصحراء تصلهم كل الأسرار. وفي نهاية الأمر أعطيته ما كان يستغيه من المال. وكنت أقصد أن أعطيه المبلغ قبل أن يسألني وهذه عادة عندهم تزعجني. فعندما قررت شراء اللحم للغداء فاجأتني هدية من زوجين من الغنم. ومثل هذه الهدايا تكلف الضعف!

وكانت صخرة عقلة التي وجدت عليها النقوش من الصخر الرملي، خشنة الملمس مربعة الشكل طول ضلعها يبلغ ٢٢ قدماً. وفي الجهة الشمالية الغربية تتوزق قاعدة مربعة ارتفاعها ثلاثة أقدام وعلى قممها توجد أطلال أثرية. وهي عبارة عن حصن مربع الشكل يتكوّن من ألواح من الحجر الجيري الجيد التشذيب - يبدو أنه جلبت من مكان قصي عن موضعها الحالي -. أما الجانب الأوسط لكل جدار فيتشكل من ألواح غير مشذبة «دبش» من الحجر الرملي والأحجار الناعمة. وهناك سبعة مدايمك من الألواح الحجرية ملتصقة مع بعضها بطريقة غير متقنة، لا تزال شاخصّة للعيان حتى الآن. ويكون البناء الجزء الأكبر من أعلى قاعدة الصخرة ويشغل حيزاً

يبلغ عشرة أقدام مربعة. ولا يمكن الوصول إليه من الأرض إلا بواسطة مجموعة مدرجات مهدمة، تبقى منها نصفها مما استدعى أن نساعد بعضنا بعضاً بغية الوصول إلى البناء. ومن المؤكد أن البناء ذو طبيعة عسكرية أو مخفر شرطة خصص لحماية الأراضي المزروعة والتي يبدو أنها تمتد من شبة إلى هنا بحوالي عشرة أميال. ولو حظ جرد صهرنج ماء مبني عند أسفل الصخرة في الجزء الجنوبي الشرقي منها، ويبلغ ضلعه عشرة أقدام وارتفاعه خمسة أقدام. ويبدو أنه استغل لسقيا الجمال التابعة للحصن. فإذا كان ذلك هو الحال، فمن المرجح أن المياه كانت تجلب من مكان آخر حيث إننا لا نرى أي أثر لبئر هنا، وقد أخطرتني صالح مؤخراً بأن عشيرته التي تقطن في منطقة عقلة المجاورة عثرت على بقايا منازل وآبار عند أسفل الجبل في الجهة الشمالية. لذلك فإن عقلة التي عرفت في النقوش باسم «أنواد»، كانت بالتأكيد مستوطنة زراعية.

وفي الجهة الشرقية من صخرة عقلة، يوجد ١٤ نقشاً تتضمن ٩٠٨ حروف، يبلغ المتوسط ٦٥ حرفاً للقطعة الواحدة، وأطول هذه النقوش يضم ١٩٣ حرفاً وأربعة أخرى تحتوي على ما يزيد على ١٠٠ حرف. وتوجد نقوش تشمل ٨٧٨ حرفاً بمتوسط ٥١ حرفاً بينما أطولها يبلغ ٢٨٢ حرفاً، بينما نجد أن اثنين منها تضم فقط أربعة أحرف. وفي الجانب الجنوبي للصخرة يوجد ١٩ نقشاً أطولها يحتوي على ٩٩ حرفاً وثلاثة منها ذات أحرف تبلغ في المتوسط ٣٤. أما الجانب الغربي فقد وجد فيه نقشان إحداهما يحوي ٤٦ حرفاً والآخر خمسة أحرف. وهناك صخرة منفصلة بالقرب من صخرة عقلة تقع إلى الغرب من قاعدة الحصن نفذت فيها ثلاثة نقوش تضم ٤ و ٢٢ و ٢٥ حرفاً. وتبلغ جملة النقوش في هذا المكان ٥٥ نقشاً تشمل ٢٥٣١ حرفاً بمتوسط ٤٦ حرفاً للنقش الواحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنني بذلت جهداً كبيراً في تسجيل كل هذه المادة وكنت أعمل حتى مغيب الشمس ولقد هدني الإرهاق من عناء العمل المتواصل رغم الكميات الكبيرة من الشاي التي كنت

أحتسيها. ورغم ذلك كله، فقد كنت أشعر بالرضى عن النفس لهذا الإنجاز. وأهمية هذه النقوش تم التنويه بها بواسطة عالم الكتابات أ. ف. ل. بيستون من جامعة أكسفورد والذي نجد تقريره عنها منشوراً في ملحق لهذا المجلد.

ومن موقعنا في الحصن عند أعلى الهضبة يمكننا رؤية مناظر كثيرة. وبإمكاننا رؤية قبة (ضريح) ابن يوسف وجبال شبوة إلى الشرق، بينما تقع إلى الجنوب راية عياذ بملاحاتها. وباتجاه الجنوب الغربي المعتم رأينا جبال عطفان الممتدة من وادي مريحة إلى بيحان. وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف عندما استأنفنا الرحلة وقطعنا حوالي أربعة أميال، توقفنا بعدها للتعرف على مناجم استخراج الملح في خروء التي أخذت اسمها من واد يهبط من مرتفعات الغبر وفي هذه المنطقة شقت العديد من الحفر التي تحتوي على صخور ملحية. ولوحظ أن هذه الحفر صغيرة وضحلة وغير منتظمة الشكل مثل مناجم شبوة. وهي مثل ملح المقعة يعمل فيها بدو الكرب أثناء رعيهم لقطعانهم في الأودية المجاورة. تقع المرتفعات في اتجاه شمال جنوب وعلى بعد ثلاثة أرباع الميل من بعضهما ويقع المنخفض بينهما على نحو ثلاثين قدماً فوق مستوى السهل.

ومن هذه المنطقة تحركنا بجهة الجنوب عبر السهل. ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في مطاردة قطيع يتراوح بين سبعة إلى ثمانية غزلان، ظفرنا باثنين منها. وبعد ذلك توجهنا قاصدين قرن الضبيا عبر واد متسع تكسوه الشجيرات الصغيرة يسمى مذنب آ جعفر، ويرتفع الجبل نفسه ١٠٠ قدم تقريباً فوق الوادي. ويبدو أنه مستودع كنز نقيين حسب ما ترويه الإشاعة السائدة. لا يعلم أحد كيف انتشرت هذه الإشاعة ولكن صدحاً تلقى نقداً من عشيرته لرغبته في أخذي لذلك المكان. وقد سألتني بعض أعضاء بعثتنا في المعسكر إذا ما وجدت الكنز وكنت أخبرتهم بأنه لا يوجد شيء مثل ذلك.

يمثل هذا الجبل آخر نقطة من المرتفع الحصوي الذي يمثل الضفة اليسرى لريدي أنصاب. وهناك كتلة أخرى من الحصى في اتجاه الغبر المرتفعة مع منخفضات تملأ

المسافة بين أنصاب وجعفر حيث يكونان دلنا واسعة تخرج في مقابلة حزام السبعيتين الرطلي .

كان وصول سيارتنا علامة لتجمع الأهالي المندهبين لرؤيتنا وقد أقمنا كالعادة في مكان فسيح على طرف معسكر صالح وأسرته . وقد غادر صالح المكان لقضاء بعض الأمور الخاصة بشؤون قبيلته . وبقينا لوحدنا إلى أن حان موعد تناول طعام العشاء المكون من لحم الماعز وعصيدة القمح (البر) . وبعد أن فرغنا من الطعام لم يكن هناك شيء يستوجب مناقشته مما دفعني للعودة لمواصلة عملي . وكان يقطع خلوتي فقط الزيارات المتقطعة من بعض الأهالي الذين كانوا يرمقوننا بنظرات محدقة وهم في حالة اندهاش لكنني لم أعرهم اهتماماً وواصلت عملي بدأب ونشاط ، وكان ضمن هؤلاء الأهالي الابن الأكبر لصالح . ويبدو لي أنه فظ السلوك يبلغ السادسة عشرة أو السبعة عشرة من العمر . وقد جاءني في منتصف الليل وبصحبتة زوجته المدعوة رحمة ، والتي أحضرت لي طاسة من الحليب . وكانت هي التي جهزت لنا طعام الغداء عندنا زرنا مخيمهم في هضبة الكوير وكان منظراً لطيفاً ، إذ توجد خيام البدو وسط الشجيرات وتلالاً نيران المعسكر لتضيء وجوه الذين يجلسون بالقرب منها . تقف الأضنام هادئة والجمال تتأمل في أحداث اليوم ! .

عندما استيقظت على أثر صوت المؤذن للصلاة وجدت أن الرمل كان بارداً تحت أقدامي العارية وكشف فجر اليوم منظراً جذاباً لخضرة النبات ، لاسيما الثمام وغيره من نباتات الصحراء ، التي دبّت فيها الحياة بعد هطول الأمطار مؤخرأ . وكان أول من جاءني صباح ذلك اليوم سيدة تدعى محسنة هي والدة المرأة الشابة . وقد أحضرت لي حلياً مع تضرعها لله تعالى بأن يسبغ عليّ بركته . ومن الحضور أيضاً الشيخ ناصر ابن قطيان . وتواصلت الزيارات فقدم إليّ حمد بن ناصر وهو في العقد الخامس من عمره ، نصف أعمى وشبه أطرش وأعرج وقال لي : «ذبحننا لك خروفاً الليلة الماضية» . وذكرت له أننا أحضرنا معنا غزالين ورغم ذلك أعطيته ريالين . وكان هناك

مجموعة من الشبان (البدو) يسألون في بعض الأحيان أسئلة تلزمها اللباقة، وكت أرد عليهم بجدية. وبعضهم كان يسأل عن الهدف من وراء صيدنا لبعض الطيور وقلت لهم مجيباً بأننا نأخذها معنا إلى المتحف، فرد أحدهم مستغرباً: «ماذا قلت؟». فأجبت: «إنه -أي المتحف- بيت كبير في مدينتنا الكبيرة مليء بالحيوانات والطيور جلبت من أصقاع كثيرة من العالم». وغادرنى وهو في ريبة من أمرى، هل أنا كذاب أم مجنون؟

وكان صباح اليوم التالي جميلاً، وتعطل سيرنا بسبب تأخر صالح لمدة أسبوع لقضاء بعض شؤونه. واستفدت من فترة التأخير لأقوم بدراسة المنطقة المجاورة. واتضح لي أن الجزء الرئيس من سلسلة جبال غالب منفصلة عن الجزء المركزي من هضبة الحوق ووادي العطف يفصل بينهما. وخلف وادي أنصاب يوجد خليج وسع تشكل هضبة حصوية ويقع وراءه منظر منطقة زراعية تعرف باسم جربت الكافر حيث ذكر صالح بأنها مكان زراعة مشهور في السابق. ومما يعزز ذلك الرأي وجود كسر لالواح حجرية متناثرة في المنطقة مساحتها حوالي نصف × ربع ميل وربما كانت بقايا لقنوات عتيقة. وفي أقصى يمين هذه المنطقة توجد بقايا ألواح حجرية لسد سائي ذي فتحات ضيقة يبدو أنها تسمح بتدفق المياه إلى الخزان من مكان عال خفه والغريب في الأمر أن هذا الخزان يستمر إلى أعلى قمم المرتفعات وعلى امتدادها لمسافة معتبرة. ومن الصعب التكهن بمغزى هذه الجدران المرتفعة. وإذا كانت فعلاً جزءاً من الخزان فإنه لا شك كان ضخماً ويحفظ كمية كبيرة من المياه. والخزان «حقل الشيطان» كان منشأة ذات أهمية قد لا تكون واضحة اليوم. وسألت الهمامي عن مذبج بعل وسلاسل الحديد المحيطة به والتي ذكرها وي مان بيري في كتابه «أرض أُر». وقد أكد على كلام بيري وقال إنها ما زالت موجودة في منطقة النسيين في باعلوان وخلف الهضبة الجنوبية لجربت الكافر، يظهر واد تكسوه شجيرات صغيرة يسمى وادي الفليق ويبدو أنه كان يمتد من منطقة جرف صخري بين الغبر ولللكلا

ويتجه نحو الشمال الغربي باتجاه أراض رملية. وبعد مسيرة ميلين وصلنا إلى نقطة تقع على الجانب الأيسر لوادي أنصاب وتطل على منظر غابة في غاية الجاذبية والجمال. وعند أسفل الجرف الصخري تقع مجاري مياه أجفر الرخم الضحلة. وفي المنطقة السفلى والعليا للنهر الجاري نلاحظ أن الوادي تغطيه كميات كبيرة من الأشجار المظللة وشجيرات الأكاسيا الشوكية ترعى فيها قطعان من الضأن والجمال. وهناك مجموعات القبائل البدوية رجال ونساء تجوب المنطقة وترى حيناً وهي تمتح المياه من الآبار لسقيا الحيوان. ومكان السقيا يسمى الغدير، على وجه التعميم. وعادة تسحب المياه من حفر ضحلة لا يزيد عمقها على قدمين وتسمى فضايا ومفردها فضية.

ونزلنا إلى منحدر وعمر يبلغ عمقه ٢٢ قدماً ونحن حفاة وانضممنا إلى مجموعة الأعمالي الموجودة قرب الآبار. ويلاحظ قرب كل بئر امرأة تقف وأرجلها ثابتة وهي تملأ الدلو بالماء الذي سرعان ما يغطس ثانية داخل البئر حالما يسحب إلى أعلى حيث تقوم امرأة أو اثنتان بتفريغه في الأحواض المعدة لذلك. وعلى أي حال هذا العمل سهل ويقضي القائمون به الوقت في الأحاديث والمزاح. ولو حظ أن النساء يلبسن ملابس بأكمام طويلة ذات لون أزرق غامق من جراء صبغة النيلة. ومعظم النساء يرتدين عقوداً، وربما ترتدي إحداهن ثلاثة أو أربعة عقود في جيدها، أما الأحزمة حول الخاصرة فهي مزدانة بالخرز والفضة والكهرمان وبعضها مزخرف بسلك على هيئة ثعبان من المعدن. ومعظم هؤلاء النسوة جميلات. والملاحظ أن أيديهن وأرجلهن مغطاة بالنيلة التي تحل في الإقليم الجنوبي محل الحناء. بيد أن أجمل هؤلاء النسوة امرأة من عشيرة آل بريك التي ترعى مواشيها عادة مع مواشي قبيلة آل عويرة وبقية القبائل وهي جذابة ترتدي عباءة جميلة بلون داكن للغاية من جراء صبغة النيلة ولكنها جليدة ومن المؤكد أنها جزء من جهاز عروس. وهناك حزام على هيئة ثعبان وسلسلة من الفضة مزدانة بقطع زجاجية موضوعة حول الخصر. ومن المؤكد أنها بنت الشيخ ودون شك أنها، سيدة خيمة الشيخ. ويجدر التنويه هنا إلى أن مهر الزواج لدى

الكرب والقبائل المجاورة لها يتراوح بين ٥٠-٢٠٠ ريال وفي أحيان أخرى ينخفض إلى أقل من ٥٠ ريالاً.

وبينما كان المرافقون لي منهمكين في ملء أوعية المياه الجليدية للرحلة (القرب): أخذت بندقيتي وخرجت للصيد. وكان أول الصيد حصولي على نوع جديد من طائر القطا. وحصلت على آخر في المساء نفسه في عياذ. ولم أكن أدري أنني عثرت على نوع جديد ويظهر أنه مختلف عن أنواع القطا الأخرى بلونه الفاتح مقارنة بالنوع المعروف للعرب باسم القطاط، والذي يأتي عادة لشرب المياه بعد حلول الظلام. وثمة إشارة هنا وهي أن الكولونيل بوسكاوين جمع عدداً من هذه الطيور قبل سنة أو سنتين خلت. ولكن لم يعر المتحف البريطاني أي اهتمام خاص لما جمعته أنا وبوسكاوين من هذا النوع من الطيور. وبعد أشهر قليلة تحصلنا على مجموعة من هذه الطيور من و. هـ. إنجرام الضابط السياسي في عدن الذي جلبها من حضرموت. وتم الآن التعرف على هذه الطيور ووصفها وسميت إنجرامز وتحصلت أيضاً على طائر الوقواق. ولاحظت أن الوادي مليء بالأنواع العادية من الطيور مثل: البلابل، الحمام، ما يعرف باسم طيور الشمس، وصائد الذباب والأبيض الحنجرة والنجوم السوداء... إلخ.

يمتد وادي أنصاب إلى هذه المنطقة من جرف الغبر في جهة الجنوب الشرقي. ومن هنا يتجه نحو الشمال. ويتكون بطن هذا الوادي من الحجر الرملي ذي اللون الأحمر وتبرر عند جوانبه الطبقات الرملية والحصى. يتكون الفليق في الأجزاء المرتفعة على طول الضفة اليسرى للوادي. عبرنا بعد ذلك قنوات أسفل الغرغر وأسفل لظحة الهابطة أرض المكلا الرأسية. ومررنا في طريقنا إلى وادي غثن بالعديد من القنوات المائية تشمل الجفان وأم القفل. هنا أقمنا معسكرنا للليلولة تحت ظل الشجيرات المحدود، وكانت درجات الحرارة عند الظل تتراوح بين ٩٨-٩٩ فهرنهايت مع مرور نسيم طيب. وينحدر هذا الوادي (غثن) من خليج صخري شديد الانحدار

بين مرتفعات المكلا والديس . وبعد الساعة الرابعة بعد الظهر اشتد هبوب الرياح من جهة الشمال وفي غضون ذلك كانت هناك بقع صغيرة من السحب تسبح في الفضاء . وفي الساعة الرابعة والنصف استأنفنا المسير مرة أخرى تاركين غثن باتجاه الجنوب الغربي وقاصدين عياداً ومررنا بسهل حصوي يقطعه في بعض الأحيان عدد من القنوات والسدود لاسيما في منطقة جردان حيث تمتد الأراضي الزراعية البدائية حوالي نصف ميل على جانبي قناة جردان - مذنب جردان كما تسمى في هذه المنطقة - لمسافة عدد من الأميال أعلى المجرى من خط طريقنا الذي يتبع الحد الأسفل من الحقول تفاعدياً للمشاكل . بعد مسيرة خمسة أميال من غثن واثني عشر من أنصاب وصلنا قناة جردان ذات الأشجار الكثيرة . تقع قرية عياد نحو ميل من هذه النقطة في اتجاه أعلى المجرى وبها مبنى وحيد يشبه القلعة - حيدان وجوية ربما لحماية حدود منطقة الزراعة .

وصلنا قرية عياد الساعة الخامسة والنصف . وعند مدخل القرية كان كل الرجال من أهلها - أربعون أو خمسون - قد تجمعوا لاستقبالنا . وأطلق عياران ناربان تحية لنا . وبعد ذلك نظم أهل القرية أنفسهم في صف طويل قبالتنا . ومن ثم تقدم حرس الشرف لتحيتنا وتبعهم الرجال لمصافحتنا . وكان بعض الرجال يحملون أطفالهم الصغار ربما لأهمية الزيارة التاريخية . أو قد يكون لخروج النساء من المنازل في يوم عطلة . وكان أحد الرجال مجذوماً ، أبيض ومصفر البشرة . ورغم ذلك لم يظهر أهل القرية أي نفور منه بل قام بمصافحتنا واحتسى معنا القهوة . وأحضر أهل القرية بعض الحصائر التي فرشت على الأرض وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ونحتسي القهوة إلى مغيب الشمس حيث تفرقنا للوضوء وأداء صلاة المغرب . وبعد انقضاء الصلاة أحصر أحد الرجال قطعة من الحجر الرملي عليها نقش باللغة الحميرية كلمة واحدة (عشقان) 'Athtobqan' وقال : إنه مجلوب من أطلال حجر عند أعلى الوادي . علاوة على ذلك ، فقد عرضت قطع أخرى ضئيلة الأحجام تشمل حلية نحاس صغيرة

وبعض العلامات التي يستعصي فهمها فضلاً عن حبة مشقوبة لنظم قلادة. وللوهة الأولى رفضت زيارة هذا المكان الأثري الذي جلبت منه هذه المعثورات وذلك حتى لا أشجع الأهالي على الجشع والمطالبة بهبات مالية؛ لذا فقد جلست لكتابة مذكرات بعض الأمور الأخرى. ولم يعكر هدوء خلوتي سوى بعض خطوات المارة -جيسة وذهاباً- من على البعد. وفي وقت متأخر قليلاً من الليل قدم وفد كبير من أهل القرية برئاسة الشيخ وفي حوزته اثنان من الأغنام للعشاء. لقد طال الليل في انتظار العشاء كما زادت جمهرة الزوار. وتبعاً لهذا الوضع الطارئ أجلت فكرة المسوحات الفلكية التي كنت أنوي القيام بها إلى وقت متأخر. ومما عضد هذا الرأي بالتأجيل أن السماء كانت ملبدة بالغيوم في تلك الليلة. ونسبة لعدم ذهاب الغيوم فقد تركت الفكرة وأخذت حبة الدواء وخلدت للنوم عند الساعة الحادية عشرة والنصف وم أكمل ملاحظاتي إلا في فجر اليوم التالي.

وبينما كنت أقوم بإرجاع جهاز المزواة -أداة لقياس الزوايا في المسوحات- إلى مكانه لحفظه وصل وفد متوقع من آل ضباب من ناحية وادي جردان يبلغ عدده ٣٠ رجلاً. وكنت أرتجف عند رؤيتي لأشكال هؤلاء القادمين في الهزيع الأخير من الليل وهم عراة إلى الخاصرة كان عبدالله الهمامي من جهة أخرى يرتدي معطفاً من جلد الغنم، الأول من نوعه الذي رأيته في هذه المناطق. وكان المرء يتوقع أن تكون هذه عادة منتشرة في بلد مليء بالأغنام. وبعد استقبال الوفد تركت صالح بن حزيق يتسمر مع الزوار ودلفت إلى مضجعي لأخذ قسطاً من الراحة ولكن لم أذق طعم النوم قط.

ويشكل خط وادي أنصاب الحد الغربي لحدود قبيلة الكرب. وخلف هذه المنطقة تعيش عشيرة همام وهي أحد فروع قبيلة العوائل والتي لا تعترف بنفوذ سلطان العوائل في أنصاب. وتجدر الإشارة هنا أن هذا الاسم الأخير يظهر خطأ في خرائطنا باسم نصاب (Nisab) بينما نجد أن ميداك (Midak) مركز سلطنة العوائل العليا يجب أن تنطق أم عتق. وتشمل مناطق نفوذ عشيرة همام المستقلة المناطق السفلى من

وادي همام ووادي مرخة. وبين منطقتي الكرب و همام يعيش أهالي قرية عياذ وقرية صعدة التي تبعد عنها بأميال قليلة عند أعلى النهر حياة شبه رعوية، حيث كانوا يجزبون جانبي واديهم مع أغنامهم وضأنهم. ومثلما عليه الحال بالنسبة إلى المشايخ في شبوة، فإنهم ينتسبون إلى عشيرة القراميش من بني جبر. وهم مهاجرون إلى هذه المنصقة من اليمن، من منطقة مأرب ولكن لا توجد لديهم فكرة عن كيف ولماذا ومتى كانت هجرة قبيلتهم؟. ويقولون: إن عياداً نفسها غير قديمة كما هو حال حيد ولكنهم عاشوا في المنطقة لوقت طويل نسبياً خاصة وهم يملكون مناجم الملح في مرتفع حيد عياذ القريب. ورئيس المجموعة شخص وجيه يدعى محسناً له وجه ماكر مثل الثعنب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاود زيارتنا شيخ القبيلة محسن مع ابن عمه ووجه لنا دعوة لزيارة القرية. وتتكون مباني هذه القرية من الطين المتماسك، وتقع في منطقة مرتفعة فوق الجرف الصخري المنخفض على الجانب الأيسر للوادي باتجاه الشمال. وفي منطقة منفصلة عن القرية باتجاه الغرب، يوجد برج جيد البناء مربع الشكل. وللقرية ثلاث آبار عمق كل منها ٢٠ قامة (١٢٠ قدم لكل واحدة). وإحدى هذه الآبار خارج القرية ذات إمداد مياه موسمي والأخريان تنضبان عند حلول فصل الجفاف.

زرنا في البداية البئر الرئيسة حيث وجدنا الفتيات يعملن في أخذ المياه ثم مررنا على القرية عبر شوارع متعرجة. وقد طلبت زيارة البرج الرئيس المجاور لمنزل متين البناء مكون من طابقين. وعلمت أنه يتبع لزعيم القرية الثالثة المشاكس والذي ما إن طرق محسن باب منزله حتى جاء للتو لاستقبالي ويبدو من قسما ت وجهه أنه كان غير راض أن يسمح لنا بزيارة البرج. وفي تقديري أنه كان يطمع في الحصول على مزيد مادي نظير ذلك. وقلت لمحسن: إن المنزل المشرف على البئر كافٍ ليسمح لنا برؤية البرج عن قرب. ولم تؤرقني زيارة هذا المنزل لرؤية البرج لاسيما وأن هناك رجلاً مدججين بالسلاح ينتشرون على سطح المنزل وعلى استعداد تام لمقاومة أي

شخص يدخل المنزل؛ لذا فقد صرفنا النظر عن زيارة هذا المنزل. وحالما وصلنا باب المنزل المجاور حتى استقبلنا صاحبه بالترحاب. ودخلنا المنزل وصعدنا بواسطة الدرج المبني من الأجر الطيني الذي يقود إلى الطابق الثاني. ومن هناك تسلقنا درجات سب خشبي آخر يقود إلى السطح. وسرعان ما امتلأ المكان بالزوار القرويين وكانوا طييز ومستعدين لتقديم أية معلومات أطلبها.

وفي السطح تمتعت بمنظر رائع. وأمضيت الوقت في التعرف على كل مظاهر هذا الريف الواسع. وبإلقاء نظرة خلفية على المكان الذي أتينا منه، أستطيع رؤية مرتفعات غالب وجبل علقة والغبر في مقدمة وادي أنصاب. وباتجاه الجنوب هناك هضاب فخذ المنعزلة تبدو مائلة للعيان من القمرة بينما تظهر مرتفعات نوخان لتي تمثل بداية حدود منطقة قبيلة الحاضنة. وبين موضعنا الحالي والمرتفعات الأخيرة يتدرج العديد من التلال البركانية وهي غير مرتفعة كثيراً وتسمى القرون السود، وتعد حدود قبيلة القراميش^(١) في ذلك الجانب. وفي جهة الغرب وإلى الجنوب قليلاً تقع روابي كُبر والظهير. وهذه المرتفعات تفصل بين وادي همام عن منطقة سلطان العواتق وتطل على العاصمة أنصاب على بعد ميل منها. وعلى الجنوب الغربي يقف صخر حجر حيث ينحدر وادي مرخة من الجبال ويختفي في الرمال في الشمال الغربي من عيادة بالقرب من مرتفع يستار والأخير متنازع عليه بين الكرب وهمام. وفي أقصى الغرب نلاحظ الجرف الصخري لعطفان الذي يقود إلى بيحان والذي تسكنه عشيرة أهل شلاميش، فرع قبيلة النسيين الصعبة المراس، وباتجاه الشمال الغربي تقع مناجم عيادة الملحية (حيد الملح) على مسافة أميال قلائل. وعلاوة على الحصنين اللذين ذكر أننا وقع ناظري على حصنين آخرين، أحدهما حصن ظبي، الذي يقع عند قمة تلال منخفضة في وادي الشولة على بعد نصف ميل من مكاننا الحالي. أما حصن عصيفير

(١) القراميش: من قبائل بني جبر في خولان العالية. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٦٤٦. (المراجعون).

فيتبع إلى الجنوب الشرقي على بعد ميل واحد. وهناك أيضاً حصن المناقل (لابن حيدان) ويقع إلى جهة الغرب الشمال الغربي من هضبة (إرنام). وتشكل هذه الحصون دروعاً واقية للقرية ومزارعها من أي اعتداء عليها. وإذا ما جلنا ببصرنا باتجاه الشرق والجنوب الشرقي فيكتمل المنظر برؤية قرية صعدة على الجانب الأيسر من (وادي جردان). وهناك حصن البويردة الحديث ويقع في منتصف أطلال قديمة إلى الأمام. وترى صخور حيد - الضواحي المنعزلة والتي تقع عند منتصف القناة عند خروجنا من الجرف الصخري مباشرة. وعند أسفلها مباشرة توجد المستنقعات المعروفة باسم الكراف، والتي نجمت عن ركود مياه السيول. وأمام هذه المنطقة - كما قيل لي - موقعا حجر وبنا الأثريان ولكن تتعذر رؤيتهما من هذا المكان.

وبعد أن فرغت من هذا المسح، قررت أن أزور مناجم الملح بمفردي وأن أترك بقية المرافقين وسيارة النقل والجمال في المعسكر. وتفادياً لأية متاعب قد تقابلني اخترت أن يصطحبني كل من سائق السيارة وعبدالله الهمامي ومحسن وصالح بن حزيق، ولكن هذا الاختيار أفضى إلى هياج وسط المجموعة حيث أعلن كل من ابن عم محسن وزعيم الفرع الثالث لقبيلته أن لهم الحق في مرافقتي إلى مناجم الملح لاسيما وأنهم أيضاً - على حد زعمه - شركاء في ملكيتها. وباءت كل محاولاتنا بإقناعهم بعدم وجود مكان يتسع لهم في السيارة بالفشل. وفي نهاية الأمر رضخت لمطلبهم وانضم الاثنان إلى المجموعة رغم ضيق الحيز في السيارة وانطلقنا لا نلوي على شيء سوى مناجم الملح.

وتحركنا عبر مناطق تتخللها سدود مائية، ودخلنا سهلاً قاحلاً توجد عند نهايته روابي وحيد الملح التي تبعد حوالي خمسة أميال من القرية. ومن هناك واصلنا السير عبر واد ضيق متعرج مؤد إلى قلب الجبال. وعند نهاية هذا الممر تركنا السيارة ومشينا بأرقلنا نحو خمس دقائق عبر أراض صخرية إلى موقع المنجم. واعتلى محسن صحرة على ارتفاع مئة قدم ليرى ما إذا كان الشاطئ ظاهراً. وذكر أنهم دائماً يحتلون

هذه النقطة المهمة كحماية لهم من البدو الذين يهاجمونهم أحياناً. وعند إشارته لنا تبعناه لتأخذ نظرة شاملة من أعلى حيث رأينا قمتي النسرخ خلف شبة في جهة وهصية عطفان من الجهة الثانية. وبعيداً عنا في الرمال رأينا يستار والقرنين للشمال وقمة ثلوت من وراء عقلة. وكان عند موطى أقدامنا حفرة يستخرج منها الملح كما وجدنا بعض الأكياس المملوءة بالملح مبعثرة عند طرف هذه الحفرة. وتعد هذه النقطة نتيجتي اعتليناها الجزء الأعلى من الهضبة ولها ثلاث أو أربع قمم. وتظهر طبقات الهضبة أرضية متموجة لكنها أقل وعورة مقارنة بنظائرها في شبة المقعة.

والمنجم الذي وصلنا إليه يقع في طبقات صخرية صلبة وعميقة ذات لون يميل إلى الرمادي. وتحتها مباشرة بعمق ٥٠ قدماً إلى شمال المدخل، وبحوالي ٣٠ متراً إلى اليمين، ما يزال العمل مستمراً. بينما يلاحظ أن الواجهة المقابلة للحفرة قد تم حفرها إلى أعماق بعيدة. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عدداً من العبيد يعملون هنا. وعندما أدرك أحد هؤلاء أننا غرباء همّ بتناول بندقيته لمهاجمتنا ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة عندما تيقن أننا لسنا أعداء ومن ثم استمر في مواصلة عمله. وعند وصولنا إلى الحفرة التي كان يعمل فيها هذا الزنجي طلبت منه أن يحفر لي كتلة من الملح وأعطيته ريالاً. والشيء نفسه فعلته مع رفقائه الأربعة. ثمة إشارة هنا وهي أن "المجبة" أو الرسوم التي يأخذها أهالي حصن الجويبة من تجار الملح تصل إلى زبال واحد نظير حمولة ثلاثة جمال بالإضافة إلى دفع ما يسمونه "مرسه" وهي دفع يبلغ ربع ريال على كل جمل محمّل بالملح. عدنا للسيارة وسرنا عبر التلال في الجانب الآخر. حيث دخلنا سهلاً رملياً كبيراً حتى وصلنا حقول عياذ.

وقبل الذهاب إلى المناجم كنت قد تفاوضت مع وفد جردان وكان من ضمنه حمد بن عبدالله الذي قابلته في شبة. وكان الأخير قد أوفد كل فروع عشيرة أهل جردان وآل الفشر. وكان موضوع الرحلة إلى الأطلال في الوادي جذاباً كما أن ممثلي عشائر وادي جردان كانوا قد قدموا لي دعوة لقضاء ليلة في ديارهم. ووافقت على

الزيرة وأخطرتهم بأنني سأزور في البدء القرية ومن ثم مناجم الملح وبعد ذلك سأكون في إمرتهم. وعندما رجعت من القرية جاءني الأهالي ورفقاء حمد قائلين: «مرحباً بك في وادينا حيث توجد الآثار المدهشة لقدامى الكفار، ونحن نخاف من أنك ربما تفضل حمد على حسابنا وتلحق الضرر بنا؛ لذلك يجب أن تدفع لنا من المال كما تدفع له تماماً. وإذا فعلت ذلك فبالتأكيد ستجد عندنا كل ترحاب». وكان الرد عندي «سوف لن أدخل معكم في أي شروط وتعهدات. وفيما يخص الهبة التي سأعطيكم إياها فهي مسألة أقررها بنفسني ولا شأن لكم بنوعيتها، ولقد حضرت هنا عابر سبيل، ووقتي غال لأجل الإيفاء بوعدي لحمد بزيارة شبوة. ولقد أخطرتة بأنني لن أزور الوادي إلا إذا كانت هناك موافقة جماعية على ذلك بين كافة فروع القبيلة؛ لذا فقد قدم إلى عياذ لمرافقتي. وأنا لم أعتد أن أساوم بالكرم مع العرب. ولن أساومكم أو تبيع السلوك في التعامل نفسه مع غيركم. ووقتي قيّم للغاية. ويجب أن أرجع إلى منطقة استخراج الملح بعد ساعة واحدة. وإذا أردتم أن أرافقكم فلن أفعل ذلك، فليذهب اثنان منكم مع الجمال في المقدمة ويتأخر أحدهم ليرافق السيارة». وعند رجوعي إلى المخيم لم أر شيئاً يوحي بأن رفقاء قبيلة جردان قد حزموا أمرهم. وقلت لهم بالحرف: «حسناً، طالما أنكم لا تزالون في هذا اللجاج، فلن أتدخل وأكون سبباً في هذا الانشقاق، ويمكن أن نفترق بسلام، وأنا حر في أن أعد حمد بأي هبة. كما أنني حر في أن أستمري في سيري قاصداً مرخة. والآن بدأت في حزم الأمتعة، فإذا كانت وجهتكم وادي جردان أو حتى وادي مرخة، فالأمر عندي سيان، إنما الأهم هو أن نلزمنا أئمن من إهداره هكذا. وقد أخطرت مجموعتنا في شبوة بأننا سنحضر بعد أسبوع والآن نحن في اليوم الثالث!». وقد قمت بدفع المستحقات للمرافقين.

وكان رجال جردان ما يزالون في خلافهم المستعري. فطلبت من صالح أن يركب السيرة. وأدرت على الفور الماكينة وودعت محسناً قائلًا: «في رعاية الله» ورد علي بعبارة: «فليحفظك الله آمناً». وبدأت السيارة التي تقلنا تتحرك، لكن حدث أن تعطلت

سيارة النقل (البيك أب) التي تقلنا فجأة. وقدت سيارتي إلى مسافة ميل وبعدها تحركت خلفنا سيارة البيك أب. ولقد كنت سعيداً لمفارقتي هؤلاء من عشيرة القراميش.

الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو عدم زيارتي أطلال وادي جردان، وعلى الرغم من كل سلوكهم السيئ وجشعهم، فإن آل الفشر استرعوا انتباهي كأحد أهم العناصر الجذابة في جنوب الجزيرة العربية. وهم في حقيقة الأمر إحدى المجموعات الثلاث الباقية من قبيلة بني هلال القديمة والأخريان هما أهل خليفة في الحاصنة والنسبين وعشيرة آل الفشر في منطقة جردان والتي تتكون من خمسة بطون هي آل ضباب ولهم الزعامة، فشيخهم هو صالح العقيل عم حمد بن عبدالله، وأهل حسن، وأهل عطيف، وأهل ساري، وأهل الخضراء. وفي أعلى الوادي يوجد بطن آخر هو أهل المقبر، ولكنه لا ينتمي إلى بني هلال - وهم من السادة الذين -دون شك- قد قطنوا هذا الموضع وباتوا الزعماء الدينيين للقبيلة-.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لبني هلال سمعة أسطورية وهي أنهم أجمل الناس في الجزيرة العربية وكل المباني القديمة التي لا تعرف أصولها تنسب إلى هؤلاء الأقوام. وفي الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية فإن الأساطير التي تنسج حولهم هي الموضحة الشائعة بالرغم من مزاعم التفوق للعدنيين والسبئيين والحميريين وغيرهم. وأبو زيد الهلالي بطلهم الشعبي هو الاسم الشائع الذي تردده كل الألسنة في تلك الأجزاء من الجزيرة العربية في حين أن أسماء مثل ملكة سبأ والشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى ليست إلا مجرد ذكريات عفا عليها الزمن. ومن هم بنو هلال؟. لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال. ولكن إذا كان أحفادهم هم الموجودون الآن في هذه المناطق من الجزيرة العربية، فليس بوسعي أن أجِد في أي منهم أي علامات فيزيقية أو لغوية أكثر من كونها سامية.

وحتى الآن فإنني الأوروبي الوحيد الذي زار عياداً فكل من هلفريتز وريكاردز لم يزوراها وإنما مرا بها من منطقة قريبة فقط. أما الباحث وإيمان بري فقد ذكر بصورة

عابرة في كتابه «أرض أُر - Land of Uz» إنه زار عياداً مرة واحدة. وأوضح أنه قام باستطلاع سريع وأرسل أحد الأعراب ليحضر له -خلصة- بعض النقوش ولكنه -أي وإيمان- نسي أن يقول لنا ما هو مصير هذا الرسول. والمعلومات التي يضمناها هذا الكتب والخارطة المرافقة لا تؤيدان هذا الزعم. ومثال لذلك: أن شبة -كما ذكر في الكتب- لا يمكن أن تُرى من أي نقطة جنوب العُقلة. ولو كان بري وصل إلى ذلك المكان لكان قد وجد النقوش التي عثرت عليها. فضلاً عن ذلك فإنه من غير المقبول أن لا تحتوي خارطته على موضع الحاضنة إذا كان فعلاً قد مر بها في طريقه إلى عيذ. وقد أكد لي أهالي عياد أنهم لا يعرفون شخص (بري) بهذا الاسم قد زار بلدتهم. هذا على الرغم من أن «عبدالله منصور» الاسم الإسلامي لبيري معروف في هذه الأصفاع في السنوات الأولى من هذا القرن وما زال يذكر بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ. وعلى أية حال وإلى أن تظهر أدلة أخرى أكثر إقناعاً فإن ادعاء بري زيارة عياد لا يمكن الوثوق به.

تحركنا تاركين الجانب الأيسر من أماكن استخراج الملح إلى أن وصلنا سهلاً فسيحاً. وأثناء سيرنا رأينا أحد طيور الحبارى وما إن اقتربنا منه حتى أسلم جناحيه للريح هاربا ولم نفلح في اصطياده إلا بعد مطاردة قصيرة. وبعد مسير ثمانية أميال باتجاه الجنوب الشرقي في مرتفعات العلم، توقفنا لتتناول وجبة الغداء تحت ظل بعض الصخور. ويلاحظ أن هناك هضبتين تقعان على محور جنوب شرق - شمال غرب بوضع متواز تقريباً، والمحور الأكثر ميلاً باتجاه الجنوب والذي توقفنا عند طرفه يتكون من سمخور رملية متحولة ذات لون أرجواني في حين أن الآخر تشكل طبقاته السفلية من لمصخور نفسها وتعلوها طبقات جييرية ترجع إلى عصر الأيوسين. وهنا واد رملي ضحل وواسع يفصلنا عن مجموعة كتل صغيرة من الحجر الرملي تسمى إرنام. ويظهر في الأفق البعيد عند أقصى الوادي ما يشبه طابور النمل، إنه قافلة تتكون من ٣٠-٤٠ جملاً وهي تسير بتمهل في اتجاه قرية عياد. وفي ذات الوقت، فإن قافلتنا تزحف ببطء في الاتجاه المعاكس.

وعند التقاء القافلتين، جاءنا وفد من ثلاثة رجال وذهب عبدالله الهمامي لاستقبالهم. أما أنا فقد أخذت أمتعتي الشخصية لإصلاحها عند ظل مأوى صخوي وفي أثناء ذلك دعست على أحد أقيم غليوناتي فكسرتة. واتفق بعد ذلك أن الرجال الذين ذهب عبدالله لاستقبالهم من عشيرته. وكانوا قادمين من وادي مرخة وفي طريقهم إلى وادي جردان. وعند مقابلتهم قالوا لي: «انجهنا لنرى الدولة عندما رأينا العربيت واقفة في المعسكر وقلنا لأنفسنا: الدولة ربما تعطينا «فاش». وهذا الكلمة تعني إثن أو جواز مرور عابر سبيل. وبالتالي يقصدون هبة مالية ولكن إمكانياتي محدودة وهي من أجل الصرف على مرافقي والآخرين ممن أنتفع بخدمتهم طوال الرحلة.

وبعد قضاء وقت القيلولة تحركنا الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر وسرنا حوالي ثلاثة أرباع الساعة في سهل رملي واسع يكسوه الحصى يسمى سهل الحراج. وهو في الواقع دلتا وادي همام وفي طريقنا أخذنا معنا خدم حمد القردي وكانوا قافلين إلى وادي مرخة وهم في حبور وسرور لقضاء الليلة معنا في المعسكر. واخترنا شجرة ضخمة ظليلة من نوع السرح، تسمى محلياً باسم المكشمة لأخذ قسط من الراحة بجانبها. وكان معنا في المعسكر ثلاثة من النسيين انضموا إلى مجموعة الإبل بعد أن وفروا دوابهم وتركوا لي تقدير الأجر فيما بعد، وهكذا فقد كانت المجموعة كبيرة عند العشاء حيث قمت بتسليتهم باستعمالي للمذيع الذي أثار انتباههم. وقد أخبروني بمناجم الملح في عياذ في مؤخرة وادي بيحان ومنجم صغير في وادي أبراد الذي يتبع لعبيدة مأرب وهم عشيرة من قحطان. وهو بالتالي المنجم الوحيد في سبأ الذي لم أزره. وفي البعيد -جنوباً- ترتفع سلسلة جبال كور وخلفها أنصاب بالإضافة إلى أور "UII" والقمم الأخرى التي تطل على البحر. وفي الورا بعياً توجد بيحان حيث مرتفع السليمة الذي يكون الضفة اليمنى لواديهما.

وكانت درجة الحرارة في صبيحة اليوم التالي (٢٦ سبتمبر) منخفضة تصل إلى ٥٨ في بداية اليوم. وغادر جابر بن مدعر ومعهم مجموعة بالجمال بعد تناول الإفطار

مبشرة إلى مقصدنا وهو مخيم النسبين همام في قرن الفقية في وادي مرخة. وكانت صخرة الجرانيت البارزة لـ حجر يحرق، هي التي توضح الموضع الرئيس للمخيم. وراودني شعور بأن من المؤسف أن نمر بالقرب من الحاضنة دون أن نعرف شيئاً عن المستوطنة؛ لذلك فقد قررت الذهاب إليها. فتحركنا حوالي الساعة التاسعة قبل الظهر باتجاه جنوب - شرق عبر أرض سهلية. وتوقفنا بعد بضعة أميال لقضاء بعض الوقت مع أعرابي كان راكباً ناقته ويسير وحيداً في هذه الصحراء. وبعد مسيرة تسعة أميال من نقطة انطلاقنا تغيرت طبيعة الأرض من حصوية إلى رملية. وفي الطريق قام رجال القافلة بمطاردة بعض الغزلان من إدمي. أما أنا فقد ركزت جهدي باتجاه صيد أحد الوعول. ولم أتمكن من الظفر به إلا بعد مطاردة مسافة أربعة أميال. وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا نسير في مفترق طرق عبارة عن خط تقسيم لنوعين من التضاريس: أحدهما عبارة عن سهل رملي على الجانب الأيسر والآخر هو الأكثر اتساعاً يتكون من رسوبيات وغبار بركاني. وبعد مسيرة ميل آخر وصلنا أسفل جبل الكرش الذي يبعد بما يزيد على عشرين ميلاً من المخيم الذي تحركنا منه في بداية الرحلة.

ومن الخارج يبدو جبل الكرش منخفضاً حيث يتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠-٢٥٠ قدماً. وفي الجانب الشمالي الذي صعدنا عن طريقه إلى القمة نجد شقاً متسعاً تملؤه اللابة (الحمم) وتكثر فيه الكتل والطفوح البركانية. أما القمة فهي ذات شكل بيضوي ومحاطة بجدران شديدة الانحدار يصل ارتفاعها إلى ٢٠٠ قدم في المتوسط مع وجود أقسام أكثر ارتفاعاً عند الأركان. وحفرة البركان تظهر وكأنها بحيرة ذات لون رملي مصفر مخلوط بغبار البركان. وثمة ملاحظة هنا وهي أن المنظر العام للابة (الحمم) وشكل الجدران السليمة للفوهة يوحيان بأن عمر النشاط البركاني حديث نسبياً. وأخذت بعض عينات من ذلك البركان لفحصه بواسطة خبراء المتحف البريطاني. وعلى مقربة من هذا المكان وباتجاه الشمال الشرقي توجد هضبة ثمد البركانية. وفي

اتجاه الجنوب الشرقي تقع السودان وهي فوهة بركانية على هيئة راوية. وباتجاه الجنوب الغربي تقع فوهة جنداب في حين تقع كل من خرشفة ومورا وهما رايتان بركانيتان في اتجاه الغرب والشمال الغربي. وهذه السلسلة من الفوهات البركانية والتي تتوسطها فوهة كرش تقع في دلتا الحاضنة المحاطة بجروف جيرية من جهة الشرق ومرتفعت الباطن وفخض من جهة الشمال.

وفي الجهة المقابلة لهذه المجموعة البركانية توجد سلسلة من المرتفعات البازلتية تبدأ من جبل القليعة الهرمي الشكل عند بداية الوادي وتتجه ناحية الجنوب الشرقي حيث تشمل ضنيحة، وكبار النهير وتستمر باتجاه حجر - يحزر ومرتفعات مرخة التي تقع باتجاه الشمال الغربي. وخلف وادي مرخة تبدأ الجروف الجيرية مرة أخرى بناءً من مرتفعات عفطان. ويبدو أن التحركات الأرضية القديمة قد قسمت المرتفعات الجيرية إلى قسمين وتركت عند الفجوة الفاصلة بينهما رايتين كونتا مع الجرفين على الجانبين ثلاثة أودية هي: الحاضنة وهمام ومرخة. وفي أقصى جهة الجنوب بعيداً عن هذه المرتفعات البركانية تمتد سلسلة جبال كور التي تبلغ أعلى قمة لها عند أور، وعند أسفل هذه الجبال تقع مستوطنات حبان ويشبم وأنصاب.

وبعد أن سجلنا بعض الملاحظات عن المظاهر الطبيعية والتضاريس التي سجلتها الطبيعة في أحسن صورها أعدد الآن ما فعله الإنسان. والخط من كرش إلى القعيحة يمثل الحدود بين همام وأهل خليفة. فمن القعية باتجاه الغرب يمتد وادي وطاح ويشكل مع مرتفعات كُبار - الفهير التي تمثل الحدود بين همام وسلطنة العلاقي العليا. ويعد مجرى وادي وطاح الذي يصل خلف السودة والجنداب فرع وادي همم. والوادي الأخير يبدأ خروجه من المنطقة الجبلية بين كُبار والظهير. وهناك قبيلة أمي خليفة، أو أهل الحاضنة كما تسمى نفسها أحياناً، وهي كما ذكرنا فرع من بني هلال. وهذه القبيلة مستقلة النفوذ ولا تعترف بأي سلطة عليها سواء من قبيلة يشبم أو قية أنصاب. وفي فترة لاحقة أقامت أحد عشائر هذه القبيلة (بني هلال) والمعروفة باسم

آل مهدي علاقات سياسية مع السلطات البريطانية في عدن وأسبغت عليها الأخيرة الحماية وكانت تتلقى منها الهبات .

وتقع قرى هذه العشيرة أسفل وادي الحاضنة. وترتيب هذه القرى ابتداء من أسفل الوادي إلى أعلاه يشمل: الشبيكة التي تغطيها أعداد كبيرة من أشجار العلب، وهناك ثماد ونوخان. والأخيرة تقع قبالة الجرف الصخري. أما عدة القفل فتقع في وسط الوادي على بعد ميلين شرق كرش، وخلفها تقع قرى لحرم والصحفة باتجاه الجرف الصخري. وقرية باكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من كرش يوجد بها العديد من الأكواخ والحصون. ويوجد حصنان في كل من الشبيكة -إلى الجنوب الشرقي- أسفل الجرف فضلاً عن أربعة حصون أخرى تشكل قرية الكريبية التي تقع إلى الجنوب قليلاً لكنها تتوسط الوادي وتوجد فيها قلعة جشم في الجهة اليمنى منها. أما السوق أو قرية الجابية فتقع على مسافة خمسة أميال من كرش على الجانب الأقرب من قمة مرتفعات القليعة. وتقع عتق على بعد نصف ميل إلى أسفلها، ولكنها لا ترى من كرش، القرى الصغيرة الخمسة وهي من خمر والقارة -على جانبي المرتفع- والعطف وبأسودان وهات.

ويجدر التنويه إلى أن القرى الستة عشرة المذكورة أعلاه تشكل مجمل المستوطنات في وادي الحاضنة، ومن ناحية أخرى فإن القرى الواقعة إلى أقصى جهتي الشمال والجنوب من هذه المستوطنات هي الشبيكة وهي تحت مشيخة طالب بن علي والقارة تحت إدارة ابن عمه أحمد بن علي وهما ينحدران من عشيرة أهل مهدي. وهذه القرى تقع تحت النفوذ والحماية البريطانية في حين أن بقية القرى مستقلة. وتتبع قرية الجابية إلى أهل سوا، الذين يدعون تميزاً خاصاً عن بقية العشائر لاسيما وأن السوق المحلي في المنطقة يقع تحت نفوذهم. ومن جهة أخرى، فإن أهل قفيش لهم السيادة على حصون باكبيرة الكريبية وجشم وأهل عبود تتبع لهم قرى لحرم والصحيفة، بينما تتبع قرية الشبيكة إلى أهل حمير وخمر إلى أهل الكاظمي، وقرى

هات وبا السودان لأهل منصور. وتجدد الإشارة هنا إلى أن مجموع الرجال البالغين لا يزيد على ٣٠٠ رجل في حين أن مجموع السكان في كل هذه القرى يصل إلى حوالي ١٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال.

شيدنا مخيماً عند أسفل الجبل على مقربة من شجيرات الأكاسيا الشوكية. وبما يدعو للحبور الحصول على ظل بغية الاستجمام والراحة بعد عناء ساعتين من السير المتواصل في نهار قاتظ. وأمضينا القيلولة إلى أن انخفضت درجة الحرارة قليلاً قبل أن نواصل المسيرة. ولاحظت وجود معسكر لبدو يتكون من عشر خيام على مسافة نصف ميل. ولم يعر مرورنا على مقربة منهم أي اهتمام. ويبدو أن هذه المستوطنة خالية من السكان. وبما يدل على ذلك أن العربي عادة يجلس في بيته وقت القيلولة ما لم يكن هناك سببٌ ملحٌ يدعو للخروج منه.

ومن كرش واصلنا المسير الساعة الثانية بعد الظهر باتجاه الشمال الغربي ومررنا في الطريق بمجموعة من الطفوح البركانية المنعزلة تسمى أخاسيف. ويبدو وراء هذا المنظر مساحات واسعة من السدود المائية تتخللها أشجار العلب المسمى جريبة وهذه المناطق الزراعية تدخل في حوزة عشيرة همام التي تملك أيضاً مزارع دخن في وادها وعلى أية حال لا تملك هذه القبيلة أي قرى أو مبان ثابتة في منطقتهم لأن الغالبية العظمى من أفرادها تمتهن حرفة الرعي. ويعد أهل قربان أكبر عشيرة في بلدة كرش التي تتكون من عدة أفرع هي شمالان وهي تحت رئاسة صالح بن عبدالله والد مرتد قافلنا. وهناك أيضاً آل حسين وآل طالب وآل ذياب أما بقية العشائر المكونة للقبيلة فهم آل مسفر وآل حوال وآل مفجور وآل طهيف وآل عنين وأهل هجاري.

وفي المنطقة المجاورة لجريبة توقفنا للحديث مع رجلين من عشيرة النسيير في طريقهم من الحاضنة إلى حجر - يحرر. وأناخ الرجلان جمالهم على مسافة تربية ووصلا إلينا سيراً على الأقدام. وعلى مقربة منا أطلق الرجل الأول من بندقيته طلقة في الهواء. وعلمت أن إطلاق هذه الطلقة في عرف هذه القبيلة يعني أن الشخص

القادم الذي يحمل بندقية قد أفرغ شحنتها وأن خزانة الرصاص خاوية. وسألني الرجلان: «هل يمكن أن يخترق الرصاص سيارتنا؟». فقلت لهم: «نعم يمكن ذلك إذا كانت السيارة قريبة، أما إذا كانت بعيدة فالله وحده يعلم ماذا سيحدث». وأخطرنا الرجلان أن قبيلتهم (النسين) منقسمة على نفسها إزاء زيارتنا. فالغالبية العظمى ترحب بنا، في حين أن القلة ترى أن زيارتنا لا جدوى منها وأن من الخير أن تبقى قبيلتهم في سنأى عن أي علاقات ذات تداعيات سياسية.

وفي مسيرنا عبرنا بعض السدود المائية لوادي همام حيث تنتشر شجيرات الصمغ. وعلى يسارنا تنتشر الروابي البركانية ومن أبرزها مرتفع خرشيفة. وأكد لي عبد الله أن بمقدورنا عبور هذا المرتفع عن طريق نفق منخفض. ولكن وجدنا أن الرمال التي تؤدي إلى ذلك النفق ناعمة للغاية وشكلت عائقاً لسيارتنا. وأضعنا وقتاً طويلاً ونحن نحاول اجتياز الرمال دون جدوى. وقررنا في نهاية المطاف أن ندور حول المرتفع فقابلتنا امرأة قادمة من وادي مرخة أصيبت بالذعر عند رؤيتنا وولت هاربة رغم محاولات عبدالله طمأنتها. ومن ثم مررنا بمنطقة تعد الحد الفاصل بين قبيلتي همام والنسين. وعلى الجانب الأيسر - وعلى مسافة ليست كبيرة - نلمح قناة مرخة وهي تنتهي إلى سهل منخفض حيث تلوح في الأفق البعيد حجر - يحرر على بعد ٣ أميال. وعند الساعة الرابعة والنصف وصلنا إلى مخيمات همام - النسين في الوادي خلف رابية قرن الفقيه المنخفضة الارتفاع. حيث نصب مضيفنا خيمة لوفد المقعدة الذين وصلوا قبل الظهر.

وأثناء تقدمنا للأمام اصطف بعض البدو وأطلق ثلاثة منهم عدة طلقات نارية في الهواء- وقاموا بتحيتنا ورددنا لهم التحية بالمثل ومن ثم دخلنا خيمة الضيافة التي رفعت أروقتهما للتهوية. وكان العدد الذي يقبع بداخل الخيمة كبيراً ومثيراً للدهشة. وكان مضيفنا هو عبدالله والد صالح بن عبدالله وهو رجل كبير السن بيد أنه بصحة جيدة. ولم يمض سوى وقت قصير على جلوسنا حتى استدعيت إلى خارج الخيمة لاستقبال

وفد عشيرة شمالان وهي فرع قبيلة النسيين التي تقطن وادي همام. وهم من الذين اصطفوا لاستقبالنا. وفي البدء لم تكن هناك مواضيع مشتركة لتجاذب أطراف الحديث مع أفراد هذه العشائر أكثر من ترداد التحايا خاصة من نجران إلى الأجزاء الجنوبية وجرت العادة عندما يلتقي أي فرد بمجموعة من الناس أن يحيي كل واحد منهم باسمه ويقول له على سبيل المثال: «كيف حالك يا صالح؟ الله يعطيك النجاة، فليحضك الله، كيف حالك يا علي؟ الله يعطيك من فضله، الله يعطيك العافية، الله يعطيك... إلخ هذه العبارات». وأثناء ذلك كانت تقدم القهوة العربية للحضور. تبدأ جلسات الأتس في شكل همس خافت ومن ثم تعلق الأصوات رويداً رويداً. وجست بجوار العجوز صالح. وكان أفراد قبيلة النسيين يجلسون عند الركن المقابل في المجلس على جانبي شيخهم صالح بن هادي من عشيرة الشلامي. والأخير رجل قوي البنية عدائي وصعب المراس، ذو لحية رمادية اللون ويبدو كما لو أنه أكثر ميلاً للخصام مه إلى الأحاديث الودية.

وفي إجابة عن سؤال للشيخ صالح عن سبب تأخرنا في الوصول، أوضحت له أن ذلك كان بسبب مطاردتنا لبعض الغزلان، حيث تمكنا من اصطياد ثلاثة منها. وسألني صالح باندفاع: «هل هذه غزلان همامي أم غزلان النسيين؟». فأجبت قائلاً: «أعتقد أنها غزلان قبيلة همام». فسألني ثانية: «كيف عرفت ذلك؟ هل رأيت عليها وسم همام؟». فأجبت: «لا، ولكن أطلقت عليها النار في منطقة همام بين الجرية والحاضنة». فرد علي ويبدو عليه شيء من القناعة قائلاً: «حسناً، ربما كانوا تابعين لمنطقة همام وإلا فقد تكون ارتكبت خطيئة بإراقة دماء النسيين». وواصل حديثه قائلاً: «لماذا حضرت أنت هنا؟ هل لمصلحة تبتغيها لنفسك أم لمصلحة لنا؟». نقلت له: «جئت إلى هنا تلبية لدعوة تلقيتها من قبيلة همام وعشيرة الجردان (فرع عشيرة النسيين). ولقد كان الهدف من المجيء هو إشاعة الحبور والسرور في نفوس عملاء الذين قدموا لي الدعوة. ولكن ليس لدي زمن أضيعه هدرًا ولا رغبة لي في زيلوة

أحد بدون دعوة. وأريد أن أرجع إلى نجران إلى ابن سعود». وقال لي صالح: «عند مجيئك هنا هل تمثل وتحدث باسم ابن سعود؟». وأجبت قائلاً: «لكن بدون نفوذ ابن سعود لن أستطيع أن أنتقل في هذه البقعة كما فعلت الآن، فاسم ابن سعود جواز سفر آمن لأي شخص في الجزيرة العربية، انظر إلى نجران، كانت قبائلها في الماضي مجرد قطاع طرق لكنها الآن أكثر الناس طاعة في رعية ابن سعود. وقال ابن سعود لأهل نجران إنه لا يرغب في شيء منهم. وهو -أي ابن سعود- مسؤول عن بسط الأمن والطمأنينة والسلام ومنع ارتكاب الجرائم. إذا ترك هؤلاء أساليبهم القديمة، لكن الويل لمن ينتهك الحرمات ويرتكب الخطايا التي تلحق الضرر بالآخرين، ففي هذه الحالة فإن ابن سعود لن يتهاون في تطبيق الشريعة الإسلامية». وقاطعني الرجل قائلاً: «تعلم نحن أناس أحرار ولا نعترف بسيد علينا إلا الله سبحانه وتعالى. وإن أهالي بيحان والعوالق وبعض عشائر الخليفة لهم علاقات مع حكومة عدن، لكن نحن لا تربطنا بها أي صلة. نحن أحرار ولسنا تحت حماية أحد». وقلت له: «لكن أنا أعرف أن حكومة عدن تزعم أنكم تحت الحماية البريطانية ورعايا لسلطان العوالق» فصرخ في وجهي قائلاً: «كذابون!».

ورغبت في أن أغير موضوع الحديث مع صالح، وقلت له: «إن النسبين ينحدرون من قبيلة بني هلال مثل الخليفة وآل الفشر». فرد قائلاً: «هم كذلك ونحن بالتأكيد من بني عملاق. لكن يجب أن تعرف أن عشائر جردان والحاضنة أيضاً من بني هلال. ولتعلم أنهم (عشائر الحاضنة) كانوا في الماضي يعملون في خدمتنا كجنود». وسألت عن مصدر المياه. لأن المعسكر فيه عشرات الخيم، فرد عليّ أحد الأفراد: «نحن نمتح المياه من «أسماع» وهي بئر قديمة تقع تحت رابية برقة إلى الشمال من حجر - يحزر. وكانت تسقى في الماضي جوفاً كما أن هناك العديد من الآبار القديمة التي انظمرت تحت الرمان». وقاطع حديثه رجل عجوز طالباً منه عدم إخطار الأجانب بأسماء هذه الأماكن والمعالم. وبعد هذا التعليق لزم الصمت وبقي في الخيمة حتى ذهابي.

وفي أثناء ذلك تعرفت ولأول مرة على عادة مسيحية قديمة ما زالت تنتشر بشكل واسع في جنوب الجزيرة العربية في المنطقة الممتدة من اليمن إلى حضرموت وهي غمس أرجل الضيوف في زيت الجلجلان أو السمسم. وتقدم نحوي عبد أو خادم وهو يحمل زيتاً في إناء صغير من الجلد. وقام يدهن رجلي وأرجل كل من صالح الحزيق وحمد القردعي. وكان يقوم بمسح الأصابع كلاً على حده وذلك بتبرير يده المدهونة بالزيت عليها للأمام والخلف. وفي النهاية يقوم بمسح كل من قصبته (مقدمة) وربطة الساق بالطريقة نفسها. ويقولون: إن هذه العملية تريح تعب المسافرين. ونسبة لقرب غروب الشمس وجدت عذراً للانسحاب من أجل أداء الصلاة والنظر في المنطقة من حولي.

أحضر إليّ رجل مريض بأمل أن أقدم له مساعدة علاجية. وقام الرجل بكشف صدره حيث ظهر انتفاخ بحجم بالون الأطفال مع حلمة عند نهايته. وبدا هذا المرحض في شكل انتفاخ بسيط في الصدر حيث كان الرجل في سن العشرين. وتدرجياً بدأ يزداد الانتفاخ إلى حجم الدوم ومن ثم تواصل الانتفاخ إلى أن وصل الصدر إلى ما هـ عليه الآن من ضخامة؛ لذا فقد استمر يعاني من هذا الداء ما يزيد عن نصف عمره.

وفي المساء دعينا إلى عشاء يتكوّن من وجبة لحم ضأن وعصيدة وضعت في صحون دائرية الشكل لهذه المجموعة الكبيرة من الناس -بما في ذلك عشيرة النسب- . ولاحظت أن الصحون تحتوي على خمسة رؤوس خراف. وبإلقاء نظرة سريعة على الصحون لوحظ أن مضيفينا بعد أن ذبحوا ثلاثة خراف وهي كافية للعشاء، قلموا بإحضار رأسين من خيمة أخرى ليدللوا على مدى كرمهم. وأثناء العشاء كان الأُنس يدور حول الرحالة الأوربيين الذين زاروا هذه المنطقة. وكان صالح يتذكر وإيمان بري بصورة جيدة ولكن معلوماته عن موضوع مخفر - بالمتو قد أصابها بعض الاعتراء بسبب تقادم السنين. ومنظر آثار الهجوم الذي شنه أهل الكرب على الرحالة بري ومرافقيه يمكن مشاهدته بسهولة من داخل الخيمة التي نجلس فيها، ولكنني لم أزرها

المكان. وتجدر الإشارة إلى أن عشيرة صالح بن حزيق (العويرة) هم الذين شنوا الهجوم على وإيمان بري والمجموعة المرافقة له. ولكن مرافقتنا صالحاً لا يعرف تلك التفاصيل لأنه كان طفلاً يافعا آنئذ.

وثمة موضوع آخر تم التحدث فيه خلال هذه الجلسة داخل الخيمة وهو حادث الرحلة ماكسويل - دارلنج. وكانت المجموعة التي تسببت في هذا الحادث وأوقفت ماكسويل ورفاقه بغية السلب والنهب - كما ذكر القوم - هم الفقراء أحد عشائر (المتايخ) أهل أخجام، التي تسكن منطقة المنقعة. ودخلت هذه العشيرة في صدام مسح مع جماعة ماكسويل نتج عنه تدمير قريتهم. وبعد ذلك أوقف الاشتباك وتم تعويضهم بحوالي ٥٠٠ ريال و ٢٥ بندقية. وقتل في هذا الصدام الدموي اثنان من عشيرة الفقراء. وما يجدر ذكره أن الراوي للحادث كان لا يعرف شيئاً عن هوية كل من الرجل والمرأة اللذين فقدا في هذا الصدام ولا عن الصدام ولا عن التعويضات التي دفعت. وكان الرحالة ماكسويل قد قدم إلى هذه المنطقة عن طريق أنصاب، يرافقه ثلاثون رجلاً من عشيرة همام بالإضافة إلى ثلاثة جنود تابعين للسلطات البريطانية في عدن. وكانت هذه المجموعة قد خيمت على مسافة من هذا المكان كما فعل الكولونيل ليك في زيارته إلى بيحان قبل عدة سنوات. وكان يرافق الأخير عدد من جنود السلطات البريطانية في عدن بالإضافة إلى ٤٠٠ رجل من عشيرة همام. ولكن يبدو لي أن الرقم الأخير مبالغ فيه كثيراً.

والواضح بالنسبة لنا كان كما يلي: فعلاوة على أفراد عشيرة همام فإن مجموعة من قبيلة النسبين قد رحبت بنا كضيوف أيضاً. ولتنظيم رحلة حول وادي بيحان - كما اقترحوا - فإن من الضروري أخذ موافقة الفرعين الآخرين مع ممثلين لهم لاصطحابنا في هذه الرحلة. وأعلن صالح أنهم سوف يأتون معنا في هذه الرحلة وأن المدعو مبخت - وهو الذي أحضر لنا خطاب الدعوة من قاضي وادي بيحان - ذهب لإخطارنا بوصولهم المتوقع. وواصل صالح كلامه قائلاً: «عليكم بالصبر، فكلهم سوف

يحضرون، وهم يريدون ابن سعود، ومن المؤكد سوف ترى كتابات كفار حجر - تاب في رأس وادي مرخة». وأخطرتني صالح بأن تلك الكتابات تبعد بمسافة نصف يوم بالجمال. ويتوجب علينا أن نتوقف في كل قرية لتناول وجباتنا مما يزيد زمن الوصول إلى يومين وليلة. ويمكنني أن أوفر مثل هذا الوقت شريطة أن لا نتأخر في الرحيل من هنا. وقلت لهم: «حسناً سأقوم بالزيارة صباحاً لو جاء المرافقون في الصباح وخلفاً لذلك فسوف أبدأ رحلتي راجعاً إلى شبوة». وقد تركت المشكلة لحلها في صباح الغد.

وهناك موضوع فيه كثير من الأهمية عند عشائر النسيين وهمام وبقية العشائر التي تسكن في هذه المناطق وهو الحج. ففي الظروف الراهنة فإن الحج للحضرة سواء أكان عن طريق البحر أم البر ولليمنين سواء أكانوا عصابة أم قوافل حج، يتوجب على هؤلاء الأقسام أن يدفعوا رسوم الحج. وكانت رعية ابن سعود معفاة من هذه الرسوم. وناقشني عبدالله في هذا الموضوع وتعهدت لهم بأنني لن أكو جهلاً في إيجاد موافقة تسمح لأفراد عشيرة همام في الحج القادم (فبراير ١٩٣٧م) فور وصولها نجران بالمرور دونما مساءلة عن الجوازات والرسوم وهم في طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج.

أما بالنسبة للمستقبل، فإن بوسع ممثلي هذه القبيلة مقابلة الملك في مكة لعمل الترتيبات الضرورية للحج^(١). وهذا التصرف تمت الموافقة عليه وتأييده من قبل ابن نشمي^(٢) حاكم نجران الذي أبلغته به. وقد علمت أنه لم يحضر أحد من أفراد عشيرة

(١) كانت رسوم الحج من الأمور التي تؤخذ على الحجاج نظير ما يقدم لهم من خدمات ورغم ما كانت تدره من دخل جيد للدولة إلا أن الملك عبدالعزيز أصدر أوامره الكريمة بإلغاء رسوم الحج وذلك اعتباراً من عام ١٣٧١هـ. (المراجعون).

(٢) تولى إبراهيم بن عبدالرحمن النشمي إمارة نجران فترتين: الأولى امتدت من عام ١٣٥٤هـ حتى عام ١٣٥٦هـ، والفترة الثانية من عام ١٣٧٥هـ حتى عام ١٣٨٥هـ. أوراق النشمي، دار الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

همام إلى مكة لحج عام ١٩٣٧م. وفي تقديري أن السبب في ذلك معروف وهو أن السلطات البريطانية في عدن والحكومة البريطانية في لندن أصبحتا أكثر اهتماماً بشؤون حضرموت. وعلى أية حال ففي العام ١٩٣٨م قام وفد صغير من عشيرة همام برئاسة صالح بن خميس بزيارة الأراضي المقدسة. وحدث أن أصيب ابن خميس بحمى خضيرة أثناء أداء مناسك الحج وتوفي ودفن في مكة.

وطلب مني أفراد عشيرة النسبين أن تشملهم المنحة المؤقتة نفسها التي أعطيت إلى عشيرة همام بالسماح لهم بالسفر إلى الأراضي المقدسة دونما إجراءات سفر ورسوم طريق. فقلت لهم: إنني لا أستطيع أن أتعامل مع كل فرع من فروع القبيلة على حده. وإنه إذا شعرت أثناء سفري خلال الوادي -وادي بيحان- أن فروع قبيلتهم قد أظهرت مشاعر ود كتلك التي أبدتها عشيرة همام فسوف تشملهم هذه المكرمة المؤقتة لتسهيل السفر إلى الحج. وهناك متسع من الوقت للمجموعات المختلفة للقبيلة لتشكّل رأياً متحداً. وتجدر الإشارة إلى أن النسبين تتكون من ثلاث مجموعات بالإضافة إلى أقسام أخرى غير متحدة. وهناك مجموعة أهل حسن وتشمل الخميس وزعيمهم شماع بن خمس بالإضافة إلى أهل جردان وأهل المسك. والمجموعة الثانية وهي أهل آل راجي، وتنقسم إلى خمسة أقسام وهي: أهل عسار، أهل عبدالله بن راجي، أهل طالب بن راجي، أهل ناصر بن علي وأهل عقيل. أما المجموعة الثالثة فتضم الشوية وتنفرع إلى قسمين وهما: شلامش تحت زعامة صالح بن هادي وعوير تحت زعامة علي بن غازي. وبالإضافة إلى الأقسام الأربعة الذكر توجد خمسة فروع أخرى لا تصنف ضمن المجموعات الثلاث الرئيسية وهي: أهل آل قحيل، أهل سمي، أهل عليمي، أهل فريثي وأهل حسن بن جول. ويبدو أن موضوع تجوالي أو عدمه في الوادي في انتظار قرار عشيرة أهل راجي، التي يعتقد أنها تميل إلى أن تكون في منأى عن أي ارتباطات أو تحالفات مع المجموعات القبلية الأخرى.

وتفادياً لأي انطباع سيء فقد عدلت عن أخذ الملاحظات عن طبيعة الوادي بجهاز الثيودلايت إلى منتصف الليل وفي الصباح. واتضح لي أن وادي مرخة يخرج من بين حُشاش والعجز. ويبدو أن الوادي يضيق في هذه النقطة حيث يتراوح عرضه هنا بين ٢٠٠-٣٠٠ ياردة ومن ثم ينحدر باتجاه المنطقة السهلية. وتتفرع من هذا المكان العديد من الحيطان على هيئة شكل مروحي حول الدلتا. ويعتقد بعض الأهالي أن هذه الأبنية عبارة عن بقايا حصون وقصور قديمة. ما عدا عدا برج مراقبة حديثاً نسبياً يعتلي رابية منخفضة الارتفاع على بعد أميال قليلة باتجاه الجنوب الشرقي من معسكرنا، ليس في مقدوري التعرف على علامة تدل على أنه بناء. وهذه الحيطان جيدة البناء مشيدة من قوالب الحجر المحلي وهو في الغالب حجر رملي أو بازلتني بأحجام متباينة. وهذه الحيطان مهدمة حيث تنتشر الكتل الحجرية بصورة غير منتظمة مختلطة بالرمال. والملاحظ أن هذه الحيطان طويلة وتختلف الأبعاد بين كل حائطين بدرجة كبيرة. ونلاحظ أن هذه الحيطان بعيدة نسبياً عن مخيمنا بحوالي ٣ أميال في حين أنها لا تبعد سوى ميل أو ميل ونصف عن المنطقة الزراعية؛ لذا فإنني على رأي مفاده أن الهدف من بناء هذه الحيطان تقسيم المنطقة المزروعة إلى مساحات معنولة تسمح بمرور المياه في طريقها إلى الخزان. والفائض من المياه يجري إلى الوادي خلف منطقة الصخور الرملية وهي مثل رابية قرن الفقيه تمثل الضفة اليمنى للقناة الطبيعية. أما الضفة الغربية فتكون الجناح الشرقي لجرف عطفان. وفي منتصف القناة توجد بركة وياحر اللتان أدتا دوراً بارزاً في ربط أنظمة الري القديمة. ومن المحتمل أن هناك خزائناً آخر يربط الممر الضيق بين هاتين الرابيتين. وفي حين أن ياحر تقع في الضفة اليمنى نجد أن بركة تقع في الضفة اليسرى.

وفي الواقع لم تكن لدي أي خبرة شخصية عن نظام الري المشار إليه أعلاه. ولكن منذ أن رجعت من هذه الرحلة وجدت كتاباً يدعم ما وصلت إليه من ملاحظات، صاحبه مكتشف عربي نشيط يسمى نزيه مؤيد العظم. وسوف أدقش

تفاعيل أعماله في الفصل القادم. ولكن يلاحظ أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن عدد الفواصل المنظمة للري في مارب يصل إلى ٢٢ فاصلة. ويبدو أن نظام الري في هذه المنطقة لا يمكن اعتباره نظام قنوات أو نظام أحواض إنما هو نوع من السيطرة والتوجيه الأمثل لمياه السيول بغية الاستفادة منها.

وبينما كنت منهمكاً في بحث موضوع أنظمة الري في المنطقة كما تظهر من منظر الحوائط الحجرية وصل وفد من قبيلة النسيين التي تقطن أعلى الوادي الساعة التاسعة والنصف وأطلق أفرادها طلقتين للتحية. وقد أوفدهم زعيمهم صالح بن هادي، وهو الآن لأسباب لا أدري ما كنهها قلق للغاية من عدم زيارتي للمستوطنات المختلفة في الوادي (حجر - واسطة، حجر - الصعدة، ديمة وحجر - ناب). وفي أثناء ذلك طلب مني صالح بن عبدالله أن أمكث حتى منتصف اليوم لتناول وجبة الغداء. وكنت قلقاً من أي تأخير ينجم عن دعوة لوليمة أخرى في ضيافة صالح بن هادي، لكن سمح لي في نهاية الأمر بالمغادرة قائلاً: «مرحباً بك وأنت حر طليق في أن تنتقل في بلادنا كما تشاء».

وتأخر مسيرنا لسبب آخر وهو احتياجنا للمياه سواء لإعداد الطعام أو للسيارات. وقررت أن لا أزور عياداً مرة أخرى وأن أمضي ليلة واحدة عند أطراف الصحراء في وادي مرخة أو وادي جردان قبل الرجوع إلى مخيم صالح بن حزيق في أنصب. ويجب أن تذهب جمالنا لموارد الماء للسقيا استعداداً للرحلة في فجر اليوم المقبل. وفي أثناء ذلك كان رفاقي منشغلين في تجهيزات الرحلة وهم يتحدثون ويتسامرون. وبعد شروق الشمس انفض سامرهم ولم يجتمع شملهم إلا عند الساعة الحادية عشرة ظهراً. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف وصلت قافلتنا إلى وادي بيحان عند ديار قبيلة النسيين تلبية لدعوة صالح بن هادي. وعند الظهر استودعنا أفراد هذه العشيرة وكافأنا صالحاً على كرمه واتجهنا ناحية الشرق فالشمال الشرقي عبر منطقة رملية تتناثر فيها أبنية الري القديمة ومن ثم دخلنا سهل همam الواسع. وبعد

مسيرة اثني عشر ميلاً وصلنا نقطة يضعف فيها مجرى الوادي وتصعب رؤيته. رأينا غزالاً عفرياً وتمكنت من صيده بعد مطاردة لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال. وبعد قليل وقرب نهاية وادي مرخة ظهرت لنا مجموعة من ثلاثة غزلان (ادمي) تمكنا من صيد إحداها. وصلنا نهاية الوادي وعلامته رقعة من شجيرات الأكاسيا. ويمكننا من هنا رؤية حجر-يامر على بعد ثلاثين ميلاً. أصبح لدينا الآن خمسة من غزلان الصيد ويمكننا أن نحفظ بواحدة للعشاء ونأكل أخرى الآن. وسوف نبقى الأخريات كهدايا للناس - بمن فيهم - بالطبع - صديقتي في معسكر صالح.

وتوجهت قافلتنا شمالاً باتجاه طرف الرملة، وعند اقترابنا منها مرنا بقطيع عجبر من الجمال ترعى أعشاباً حلديثة النمو عند أطراف الكثبات الرملية. وقد ابتعدنا عن هذا المنظر لاسيما أننا لم نتمكن من التعرف على هوية الرعاة. وفي نهاية المطاف وصلنا إلى حزام رملي يتكوّن من عدة كثبان يسمى أبو جنب. وتعتبر القوافل عادة هذا الحزام الرملي من شبوة إلى حريب عن طريق واد يسمى شعيب جميل في مسيرة يوم ونصف. وبعد حوالي الميل وصلنا إلى رملة، وتعرف هنا باسم رملة الحدب، بعد أن عبرنا أرضاً مرتفعة نسبياً على مقربة من الكثيب الرملي المسمى أبو جنب. ويلاحظ أن الكثبان الرملية المنخفضة شبه خالية إلا من نزر يسير من الأعشاب يسمى النصي.

وبعد أن توجهنا إلى الجنوب الشرقي قليلاً عبر منطقة خشم غير السهلية اخطة بالرمل والحصى الناعم. وكل هذا السهل الممتد من عقلة إلى عطفان باسم جو الخديف. وتنتشر في السهل قطعان صغيرة تتراوح بين ثمانية إلى عشرة غزلان. ولم نجرؤ على مطاردتها لاسيما وأن الوقت قد تأخر وأوشك الليل أن يرخي سدوله. وبعد مسيرة خمسة أميال ونحن نقترّب من وادي جردان تحولت طبيعة السهل لرملية إلى أرض خشنة نسبياً يغطيها سطح رملي متموج موشى بأعشاب النصي. ويلاحظ أن مجرى الوادي يميزه شريط عريض من شجيرات الأكاسيا الشوكية التي تبرز بشكل لافت للنظر من كثبان الرمل. وقد قطعنا الآن مسيرة ٧٥ ميلاً منذ أن غادرنا معجم

النسبين وكنا سعداء في أن نقف للمبيت . وإنه لشيء رائع أن ننعم بالسلام بعد أن انقشعت أيام المعاناة القاسية في كل من عياذ وحجر يحرر . ومنذ فترة الاعتدال الربيعي بدأت أجواء الخريف تزحف علينا فأصبح الليل بارداً كما أن الرؤية في الصباح الباكر كانت جيدة بصورة مدهشة . وبلغت درجة الحرارة في الساعة الحادية عشرة صباحاً ٦٦ وهبطت في المساء إلى ٥٧م . ورغم ذلك كان المكان مقفراً موحشاً إلى درجة أنه لم تمر أي حشرة باتجاه الضوء الذي كنت قد أشعلته خلال الليل . وأسراب الطيور الوحيدة التي عبرت فوق رؤوسنا هي القنبرة والصرد (الدعناش) . والتوع الأخير قادم من منطقة عفار . والقرار الذي أصدرته بخصوص حظر أكل اللحوم استمر سارياً ولذلك تناولنا فقط العصيدة في العشاء . وبسبب تقلص المؤن الغذائية التي بحوزتنا منذ أن كنا في عياذ، فقد نفحت أحد الرجال بعض المال بغية الذهاب إلى بلدة الجابية في منطقة الحاضنة ليحضر لنا إمدادات غذائية . وطلبت من ابن مدعار أن يشتري له بعض الملابس النسائية ليأخذها معه كهدية لأسرته .

وعلى بعد ميلين من روابي القرنين اختفى تماماً أي أثر للوادي الذي كان مستمراً إلى الأطراف الرملية لمنطقة الرملة . ولم نبتعد كثيراً عن هذا المكان حينما لمحتنا قطعاً صغيراً من غزال العفري يغري بالمطاردة . وانطلقت ومعني فراج خلف هذا القطيع . وأطلق الأخير أعيرة نارية تجاهه ولكن دون جدوى . وتمكن أخيراً من إصابة أحد أذني الغزال الذي انطلق مضاعفاً سرعته للهرب . وعندما شعر بالإرهاق اختفى داخل مجرى منخفض خشن التضاريس كيما يستجمع أنفاسه وكانت تفصلنا منه بعض الشجيرات . وأفرغ فراج عشر طلقات دون أن يصيب الغزال في مقتل . وتمكنت في الطلقة السابعة أن أضع نهاية لهذه المطاردة المثيرة التي أبعدتنا حوالي عشرة أميال من مخيمنا .

وتوقفنا عند أول رابية يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً وتغطي مساحة عدد من الأفتنة، وتشكل من الصخور الرملية المتوحلة وتخللها الأكاسيا والشجيرات الشوكية

الأخرى. وأمدتني قمة الجبل بمنظر رائع للمنطقة المجاورة والممتدة من مرتفع عضان في جهة الجنوب الغربي إلى خشم الرמיד في جهة الشمال الشرقي. ومن هذا الموقع تختفي شبوة تماماً من المنظر العام بسبب تداخل أجزاء اللسان الصخري والممتد نحو البحر لجبل قليب الكبير. ونلاحظ أن روابي القرنين تبدو وكأنها جزر صغيرة في محيط من الرمال. ويبدو أنها كانت تمثل منطقة جذب مذهشة للطيور المهاجرة لتي من أبرزها طائر الوقواق وطائر الدج المغرد وطائر الأبلق (أبو بلق) واثنان من الطيور المعروفة باسم «أبيض الحنجرة».

وانطلقنا عبر السهل باتجاه الجرف الصخري بغية الوصول إلى الجزء الأعلى من وادي أنصاب قبل أن نصل إلى مخيم صالح. وحالما وصلنا إلى الأراضي الصلبة عند طرف منخفض فاليق استرعى انتباهنا أن اثنتين من النسوة كانتا ترعيان قطيعاً من الضأن في بقايا أعشاب وشجيرات حاولتا الهرب فور رؤيتنا. وذهب صالح لطمأنتين وليعرف أخبار المخيم خلال فترة غيابه. وتابعتنا المسير حيث اجتزنا منطقة يغطيها الحصى الخشن الذي يزداد خشونة كلما تقدمنا إلى الإمام إلى أن وصلنا إلى صرف مجرى وادي أنصاب الذي يوجد به العديد من الثقوب التي يتخذها طائر جنح أعشاشاً له. وتجدد الإشارة هنا إلى أن طريق القوافل من حضرموت إلى قيم العوالق، ويشبم، وأنصاب يمر بهذا الوادي الذي تغطيه أشجار المشعط الكبيرة والعب إضافة إلى أعداد وفيرة من أشجار الأكاسيا الشوكية. وعلى جانبي هذا الوادي توجد الصخور المكسرة الخشنة الملمس تعلو صخوراً رملية حمراء تبرز هنا وهناك أحياناً على هيئة منكشفات صخرية.

وعند طرف الوادي وتحته شجرة ظليلة كبيرة الحجم، كان هناك طفل يصرخ بصورة مفعمة بالحياة في حين أن النساء كن منشغلات بسقيا أغنامهن. لذلك فقد أخذت معي بندقيتي وكانت وجهتي تجاه الوادي إلى منطقة العريجا التي تبعد نحو ميل بغية تزجية الوقت في اصطيد الطيور التي تتجمع هناك. وعلى النقيض من وادي

القرنين، فإن الطيور هنا كلها محلية^(١) وليست مهاجرة. وأهم أنواعها طائر الشمس وأكى النحل والبلبل وطائر البداية السوداء وقليل من طيور الغداف والهدهد. وعند رجوعي إلى أسفل الوادي حيث كان رفاقي يقومون بملء الأوعية الجلدية (القرب) واليراميل بالماء استعداداً لرحلة طويلة عبر الصحراء. وفدت إليّ ثلة من النساء جميلات وصغيرات السن وهن يحملن زبدية كبيرة مملوءة بالحليب، فأعطيتهن هبة سخية نظير هذا الصنيع. وقد أخطرني بوجود مورد ماء آخر مشاش، على مسافة نصب ميل في اتجاه مجرى وادي جنح. والوادي في هذا القطاع بين العريجا وأجفر الرخم يغطي مجرى مياه تحت الأرض ويمكن الحصول على مياهه من حفر غير عميقة.

وفي صبيحة اليوم التالي واصلنا الرحلة مبتعدين عن الأراضي غير المستوية والحصوية وذلك بالالتفاف حول منخفض جربة الكافر ولم يمض زمن طويل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وجدنا أنفسنا أمام مخيم صالح. وانطلق محمد برفقة سالم بن عايض من عشيرة العويرة إلى شبة لإحاطة «الجيش» علماً بملتقانا مساء اليوم التالي في عارين، حيث تواعدنا أن نمضي الليلة الأولى من مراحل عبورنا للصحراء. وسرعان ما رجعت السيارة وأخطرنا بالموافقة على هذا الملتقى. وتأخر ابن مدعار ومجموعته عن قافلة الجمال في مرخة بعد مغادرتنا لها وواصل مسيره متأخراً بعد الظهيرة مما جعله يصل إلى منطقة أجفر الرخم في ظهر اليوم التالي وانضم إلى بقية المجموعة عند مغيب الشمس. وأمضينا الليلة في ضيافة صالح ولم نذبح أي غزال واعتمدنا على الوجبات العادية رغم التذمر الذي أبدته المجموعة المرافقة.

(١) ريت في زيارتي السابقة قبل أيام فقط عدداً من أنواع الطيور المهاجرة ولكنها على ما يبدو طردت من هذا المكان. (المؤلف).